المملكة العربيَّة السعوديَّة
وزارة التَّعليم
الجامعة الإسلاميَّة بالمدينة المنورة
(٠٣٢)
كلِّية اللُّغة العربيَّة

أدَبُ الدُّولِ المُتَتَابِعَة

أ.د/ محمَّد بن هادي المباركي

الحياة السياسية فى العصر المملوكى

قامت دولة المماليك في ظل ظروف عصيبة كانت تمر بالعالم الإسلامي ونشأت ابتداء في أحضان الدولة الأيوبية التي احتاجت لهؤلاء المماليك ليقاوموا معها زحف الصليبيين على بلاد الشام ومصر وكان على رأس هؤلاء القادة الأيوبيين الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي وجاء من بعده أبناؤه وإخوته فقد واصلوا مشواراه الجهادي واستعانوا لأجل ذلك بالمماليك الذين أحضروهم إلى مصر في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب وأسكنوهم في جزيرة الروضة بالقاهرة واهتموا برعايتهم والاعتماد عليهم حتى أصبحوا هم القائمون على الأمور وأصبح هؤلاء المماليك هم القادة والوزراء في عهد الدولة الأيوبية التي لم يكتب لها أن تواصل مسيرتها التاريخية فقد خاضت كثيرا من المعارك والحروب التي شغل بها المسلمون في ذلك العصر والتي تتمثل بشكل واضح في تلك الحملات الصليبية التي اجتاحت الوطن العربي منذ أواخر القرن الخامس الهجري وأرادت أن تبسط نفوذها على ذلك الجزء المهم على العالم الإسلامي وتحتله احتلالا عسكريا وتنهب خيراته .

وكان من بوادر الانفراج أمام تلك الأحداث أن هيا الله لتلك البلاد من يوقظها من سباتها وينبهها من غفلتها ويقود العالم الإسلامي من تلك الحالة المؤسفة إلى شاطئ الأمان فلقد كان لصلاح الدين الأيوبي ورجاله المخلصين الدور الأكبر في مواجهة تلك الأحداث الجسيمة والتصدي بثبات للحملات الصليبية التي كانت تشن من الغرب الأوربي وتلقى تأييد كبيراً من ملوك أوربا .

فكان لصلاح الدين أن واجه الصليبيين في كثير من المعارك التي أذاقهم فيها مرارة الهزيمة وجعلهم يتراجعون إلى الخلف ليتخلوا عن بعض أطماعهم ولعل أكبر هزيمة لحقت بهم كانت في موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ وذلك حينما تحقق النصر الكبير للعالم الإسلامي فقد استعاد المسلمون بيت المقدس الذي ظل أسيرا في أيدي الصليبيين ما يقارب تسعين عاماً .

فكانت موقعة حطين هي البداية الأولى التي واجه فيها الصليبيون أول انكسر وتراجع إلى الوراء حيث تمكن صلاح الدين من هزيمتهم في كثير من المواقع وأبعادهم عن بلاد الشام إلا أن تلك المسيرة الجهادية لصلاح الدين لم تكتمل فقد وافته منيته سنة ٥٨٩هـ ليحل بعده أبناؤه وإخوته في الإمساك بزمام الأمور والمواصلة على سيره .

ولكن تلك المسيرة لم تتصل بسابقها ولم تتواصل تلك الخطى التي قدمها صلاح الدين إذ نشب النزاع بين أبنائه وأصبح التنافس على السلطة هو الهم الأكبر لهم وكذا كان الأمر بين أحفاده الذين منهم الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي حاول تطوير جيشه بإدخال المماليك إلى مصر بكثافة حيث استخدمهم وبني لهم جزيرة في البحر عرفت بجزيرة الروضة وكان هؤلاء المماليك هم الذين يتصرفون في الأمور القيادية ويتدخلون في شؤون الدولة وقد كثر عددهم بشكل جعلهم أكثرية في مصر ومع وفاة الملك الصالح حل ابنه الملك المعظم توران شاه محله فترة قصيرة لا تتجاوز الشهرين اختلف فيها مع المماليك فقتلوه وتولت شجرة الدر - زوج الملك الصالح - زمام الأمور وتزوجت من قائد المماليك عز الدين أيبك ولكنها قتلت بعد فترة وجيزة من الزمن وبذلك انتقلت السلطة إلى المماليك الذين توارثوا السلطة بعد عز الدين أيبك .

وكانت هذه الانتقالة هي البداية الأولى لبداية دولة المماليك التي بسطت نفوذها في مصر و بلاد الشام ما يقارب من ٢٧٥عاما فقد كونوا دولة قويه وقفت أمام الأحداث الجسيمة التي شهدها العالم الإسلامي آنذاك وفي مقدمتها سقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦ هـ على أيدي التتار التي اجتاحوا بغداد وعاثوا فيها فساد وقضوا على الخلافة العباسية وأرادوا أن يبسطوا نفوذهم على أجزاء واسعة من العالم الإسلامي ولكن حملتهم الشرسة تحطمت بعد ذلك بسنتين على أيدي المماليك في موقعه عين جالوت سنه ٦٥٨هـ التي تمكن فيها المماليك من إزاحة ذالك الحاجز الثقيل الذي صعد فجأة ليغير مجرى الحياة السياسية وبالفعل فقد كانت عين جالوت هي الموقعة التي حالت دون استبداد التتار ووحشيتهم وسعيهم إلى الاستيلاء على السلطة .

كما واصل المماليك مقاومتهم وحروبهم الضارية أمام الجيوش الصليبية واستطاعوا بالفعل أن يواجهوا تلك الجحافل بقوة ويبعدوها عن الوطن العربي وكان السلطان المملوكي الظاهر بيبرس ممن تصدوا لتلك الجحافل فقد استرد كثيرا من البلاد

الإسلامية التي استولى عليها الصليبيون وفي أيام (السلطان اشرف خليل) تطهرت البلاد من جميع الجيوش الصليبية وعادت الشام بأكملها إلى الحكم الإسلامي ليسهم ذلك في توحيد أجزاء العالم الإسلامي كي يعود متماسكا بعد حروب طويلة مع الصليبيين والتتار .

ودولة المماليك انقسمت إلى فرعين :

١- فرع عرف بالمماليك البحرية التي عاشت في جزيرة الروضة بمصر وبدا نفوذها من سنة ٦٤٨هـ إلى سنة٧٨٤هـ وهؤلاء هم من الحرس الذين اشتراهم الملك الصالح نجم الدين أيوب وأسكنهم في ثكنات عسكرية بجزيرة الروضة وكان أكثرهم من الترك والسلاجقة ولم يكن الأيوبيون أول من لجا إلى ذلك فقد سبقهم إليه خلفاء الدولة العباسية الذين اتبعوا سياسة استخدام الأرقاء الأجانب حرسا فجنوا من ذلك ما جناه بنو العباس وأصبح الأرقاء قواد الجيش ثم صاروا سلاطين الدولة بعد ذلك .

٢- المماليك البرجية وهم الفرع الثاني وقد جئ بهم إلى مصر بعد المماليك البحرية وكانوا في أول أمرهم حرسا خاصا (للسلطان الناصر قلاوون) وسمو بالبرجية لأنهم كانوا يقيمون في أبراج القلعة بالقاهرة .

والمتتبع لما قام به أولئك المماليك يلحظ وقوفهم ضد الصليبين فقد تتبعوهم في مواقع عديدة حتى أخرجوهم من بلاد الشام وغيرها من البلاد التي احتوها أبان الحملات الصليبية كما نجح المماليك في التصدي للجيوش المغولية الغازية التي قادها سلطان التتار هولاكو إذ تمكنوا من هزيمتهم في واحدة من أقوى المعارك الإسلامية وهي معركة (عين جالوت) سنه ٦٥٨هـ .

وأخيرا فقد كانت حركة السلطان سليم العثماني هي المرحلة الأخيرة لدولة المماليك وذلك حين انتزع الأمر منهم سنة ٩٢٣هـ واستولى على زمام الأمور وقامت دولة جديدة التي عرفت بالدولة العثمانية .

" الحياة الاجتماعية فى العصر المملوكى "

تباينت الحياة الاجتماعية في هذا العصر تبعا لتباين الأحوال السياسية والحربية حيث جاء هذا العصر امتدادا للعصر الأيوبي الذي كان في اغلبه صراع قوي ضد الصليبين فقد اعتاد الناس على سماع تجهيز الجيوش وقد كان لهذا الجانب اثر على الحياة الاقتصادية في ذلك الوقت فقد كان ذلك سبب في نقص المواد التجارية وتأثر الناس بتلك الأوضاع وهو أمر اعتادوه منذ الحروب الصليبية إضافة إلى ذلك فقد كانت تحدث بعض المجاعات التي تكتسح البلاد سواء ما يكون عن طريق الفيضانات وانتشار بعض الأمراض كالطاعون الأسود الذي ذهب ضحيته عدد كبير من الناس إضافة إلى ذلك ما حدث سنه ٦٥٠هـ من نقص ماء النيل حيث جفت الآبار على الفلاحين أو على الزرع فندرت المحاصيل وارتفع ثمن القوت ارتفاعا هائلا وعجز عن شرائه الفقراء وهلك كثير من الناس واشتدت الأزمة فأكل الناس الميت من الكلاب والمواشي وكان هنا بعض الناس يبيعون أولادهم لشراء القوت ولم يكن الخبز يخرج من الأفران إلا مع الحراس الذين يحملون العصي ومع ذلك فقد كان الجوع يدفع الكثير منهم بأن يرموا أنفسهم على الخبز ليختطفوا منه شيئاً غير مبالين بما يقع على أنفسهم من ضرب شديد .

وهذه الأحوال ظهرت في أوقات متفرقة من هذا العصر الذي شهد اضطرابا من الناحية الاقتصادية تحدث عنها الكثير من المؤرخين وذلك ما حدث سنه٧٤٩هـ على أن بعض الفترات تميزت بوجود التوازن الاقتصادي وتحسن في الحالة المعيشية في ذالك العصر.

" الحياة العلمية والثقافية فى العصر المملوكى "

بعد سقوط بغداد سنه٦٥٦هـ انتقل النشاط العلمي من بغداد إلى مصر وكثر العلماء في كل فن وكذلك الأدباء والشعراء لتتكون بعد ذلك بيئات علميه في مصر والشام تضاهي تلك البيئات التي عرفت بها بغداد أمام الخلافة العباسية.

وقد ساعد على ذلك اهتمام المماليك بجانب العلم والحضارة وسعيهم إلى نشر العلم من خلال إنشاء المدارس المتعددة في جميع أنحاء الدولة وكانت أكثر الموضوعات العلمية اهتماما وعناية علوم الحديث ودراسة الفقه على المذاهب الأربعة وتفسير القرآن الكريم ودراسة أصول الدين وتعلم اللغة والأدب .

كما كثر في ذلك العصر الاهتمام بالتأليف في العلوم الرياضية والطبيعية والفلك والجغرافيا والطب والهندسة بما يوحي بأنه كان لمثل هذه الموضوعات مدارس خاصة أو حلقات خاصة في المدارس العامة .

- فقد لمع في جانب الطب اسم (ابن النفيس)المتوفى سنه ٦٨٧هـ وهو مكتشف الدورة الدموية بين القلب والرئتين .

- كما لمع في الرياضيات اسم (سعيد ابن مصدق الصفدي) .

- وفي العلوم التطبيقية ظهر (احمد ابن السراّج).

- أما بالنسبة للعلوم الشرعية فقد نبغ غير عالم في هذا العصر ممن يعدون من كبار أهل العلم وفي مقدمتهم شيخ الإسلام (ابن تيميه رحمه الله) صاحب الفتاوى الذي كان له دور في الحياة العلمية والشرعية في عصره بل كان المرجع الذي يعتمد عليه كثير من طلاب العلم في فهم المسائل الفقهية .

ومن العلماء أيضا تلميذه(ابن قيم الجوزيه)ومن العلماء أيضا(شرف الدين النووي) وغيرهم من علماء الشريعة في ذلك العصر .

- أما في جانب التاريخ فقد ظهر ثلاثة من المؤرخين الذين تعد كتبهم مصادر رئيسة في تاريخ ذلك العصر وهم (كمال الدين ابن العديم) (وأبو شامه المقدسي) (صاحب كتاب الروضتين في أخبار الدولتين) (وابن خلكان)(صاحب كتاب وفيات الأعيان) .

- أما بالنسبة للمؤلفات الأدبية فان السمة البارزة التي كان عليها التأليف في العصر المملوكي هي انتشار الموسوعات الأدبية التي تعنى بجميع فنون الأدب واللغة من خلال دراسة تاريخيه طويلة لا تتعرض لعصر واحد فحسب بل لعصور متعددة قد تبدأ أحيانا من العصر الجاهلي ومن تلك الموسوعات :

١- (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) لمؤلفه :

(شهاب الدين القلقشندي) وهو كتاب يهتم بفنون النثر العربي من خطابة ورسائل متنوعة وحكم وأمثال وكتابات نثرية سعى المؤلف من خلاها إلى توضيح فنون النثر في كل عصر من تلك العصور وبيان الأسس الفنية التي اشتمل عليها في ذلك العصر وللمؤلف اهتمام كبير بجانب المراسلات وبخاصة تلك التي تصدر من دواوين الإنشاء والتي حاول من خلاها أن يقنن لفن صناعة الإنشاء ويوضح الأمور الفنية التي ينبغي أن يسير عليها .

٢- ومن الموسوعات الأدبية أيضا(نهاية الأرب في فنون الأدب) (لشهاب الدين النويري) وهو يقع في ثمانية وعشرين مجلداً ويزخر بأهم الفنون الأدبية التي يشتمل عليها الفن الأدبي حيث يهتم بجانب التوصيف لبعض المراحل الأدبية مع عرض النصوص الشعرية والنثرية التي تدل على نهضة الأدب في ذلك العصر كما ترجم المؤلف لكبار الأدباء وتحدث عن مسيرتهم الأدبية وما امتازوا به في أدبهم وهو كتاب يحمل قيمة كبيرة في الحديث عن الفنون المختلفة في الأدب .

٣- ومن الموسوعات الأدبية بل والجغرافية (كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) لمؤلفه (ابن فضل الله العمري) ويتحدث هذا الكتاب في كثير من أجزائه عن بعض الأمصار العربية ويتعرض لما فيها من فنون الأدب والعلم والحضارة ويتحدث عن علمائها وأدبائها وما امتازت به تلك الأمصار عما سواها .

ولقد كان جانب التأليف غزيراً في ذلك العصر ويبدو أن كثيرا من الأدباء والعلماء استشعروا واجبهم نحو ما ضاع من المؤلفات التي ضاعت إحراقا وغرقا في حادثة التتار حينما استولوا على عاصمة الخلافة الإسلامية في بغداد وما ضاع في تلك الفترة من مؤلفات علمية لذلك فان أيسر ما عمله أولئك المؤلفون بالطريقة الموسوعية هو محاولة التعويض عما فقد من الفنون والآداب .

ومن الأمور التي تثير الجدل والنقاش في العصر المملوكي هو ما ذهب إليه بعض الأدباء والمؤرخين من المستشرقين أو العرب الذين حكموا مبدئيا على هذا العصر وأطلقوا عليه عدة مسميات منها :

عصر الانحطاط أو عصر الانحدار أو عصر الجمود الفكري وهي مسميات جاءت في الغالب من المؤلفات التي كتبها المستشرقون وأطلقوا فيها رؤيتهم المحدودة عن الحياة العلمية والأدبية في ذلك العصر .

ونتوقف عند هذه القضية بعض الوقت لنرد على تلك الآراء ونقول كيف يوصف هذا العصر بتلك المسميات وقد شهد نهضة تأليفية كبيرة فقد ألفت فيه المؤلفات الضخمة في مختلف فنون العلوم كما انتشر فيه فن التأليف الموسوعي إضافة إلى ذلك فقد خلد فيه التاريخ ذكرى انتصار المسلمين على التتار أولاً ثم على الصليبيين ثانياً وما صاحب ذلك من كتابات أدبية وقصائد شعرية قيلت في هذه المناسبات التاريخية ولعل في مقدمة من رد على تلك التهم التي وجهها المستشرقون لهذا العصر الدكتور شوقي ضيف الذي يقول :

(لعل عصرا لم يظلمه الباحثون والمعاصرون من عرب ومستشرقين كما ظلم العصر المملوكي فقد سموه خطأ باسم العصر المغولي ونعتوه بأنه كان عصر انحطاط وضعف وهو حكم جائر كتب له انه يذيع ويشيع على الألسن وان يلقي أستارا ضعيفة على هذا العصر تحجب حقائقه العلمية والأدبية عن أنظار الباحثين ومن الظلم البين لهذا العصر الذي سحق فيه المغول والصليبيون ودمرت جموعهم أن يوصف بأنه عصر انحطاط وإعياء فكري وعقم شديد)

ويشير مؤلف أخر وهو (محمد رجب النجار) إلى ما لحق العصر المملوكي من جور وظلم فيقول (إن الأدب في عصور المماليك لم يلق بعد حقه العلمي والمنهجي من الدراسة تحت طائلة وهم فارغ أنه ينتمي إلى عصور الركود السياسي وكأن الركود الفكري والفني والأدبي مرهون بالركود السياسي وحتى لو سلمنا جدلا بأن الأدب الرسمي قد أصابه شي من الجمود فإن ذلك الجزء الضخم من تراثنا الأدبي يجب أن يخضع للدراسة الأكاديمية والمنهجية لسبر أغواره ومعرفة أسباب ذلك في الوقت الذي لا تزال فيه الكتب النثرية والشعرية لهذا العصر مخطوطة قابعة وضائعة في مكتبات العالم).

واستطرد يقول (والحق أنه لم يكن هناك ركود ولا خمول ولا تعطل ذهني وإنما كانت هناك محافظة قوية بدافع الاحتفاظ بالشخصية العربية أمام أعداها المغيرين من التتار خشية أن تضعف أو تضمحل أو يصيبها أي وهن من شأنه أن يؤثر على قوى تلك الثقافة الأدبية في ذلك العصر).

ومن أهم الآراء التي قيلت في هذا الجانب رأي أحد الدارسين الذين تخصصوا في دراسة الأدب في عصر الحروب الصليبية وهو الدكتور (أحمد بدوي) الذي يقول : (وبعد فأن واجب البحث العلمي يقتضي أن يقرر أن ما كان من أدب الحروب الصليبية لا يزال خبيئا في الخزائن مخطوطا أو مصورا لم يحقق تحقيقا علميا يظهره في أكبر صورة ممكنة وأن من الواجب أن تتضافر الجهود على نشر هذا الأدب وإذاعته حتى يكون من الميسور دراسته في صورة أوسع)

أما الدكتور طه حسين فيقول عن رأيه فيما يقال عن أدب العصر المملوكي :(ما يقال أنه كان عصرا مظلما هذا هو السخف نفسه فهو من أزهى العصور الإسلامية بالنسبة للقاهرة والبلاد العربية ويمكن أن يقال عن عصر المماليك بأنه دوائر المعارف وهذا يكفيه ففي هذا العصر ظهر للنويري نهاية الأرب في فنون الأدب ، وظهر لابن فضل الله العمري مسالك الأبصار في ممالك الأمصار وظهر للقلقشندى صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، وظهر لأبن منظور لسان العرب كما أختصر في هذا العصر كتاب الأغاني فلم يكن هذا العصر مظلما في أي حال من الأحوال).

ومن خلال هذه الآراء تتضح لنا نظرة مستوحاة وقف عليها بعض الدارسين من خلال بعض الظواهر العامة في العصر المملوكي وهي تدل بوضوح على أثر النشاط العلمي فيها و التأليفي والفكري والأدبي والذي ظهر في ذلك العصر فالمدارس التي فتحت لتلقي العلوم الشرعية والعربية والمؤلفات الموسوعية التي فتحت ميدانا واسعا للأدب والعلوم الأخرى ما هي إلا شاهد على تلك النهضة العلمية التي اتسم بها ذلك العصر .

ومن هنا فإن عصر المماليك رسم بصورة مجحفة بأنه عصر انحاط وجمود دون النظر إلى تلك الجوانب التي كان ينبغي أن يتوقف عندها بعض الدارسين من عرب ومستشرقين ليخرجوا بانطباع متوازن يبين بوضوح الصورة العلمية والأدبية التي كان عليها ذلك العصر .

" موضوعات الشعر فى العصر المملوكى "

اتسمت الحياة الأدبية في هذا العصر ببعض الجوانب التي ينبغي الإشارة إليها لبيان الصورة الواضحة عن حالة الأدب آنذاك فلقد كثر الشعراء كثرة فائقة حتى دخل في فن النظم من يجيده ومن هو في طريق المحاولة .

وكان كثير من الشعراء يسعون إلى نظم القصائد في مدح سلاطين المماليك وأمرائهم رغبة في أن ينالوا العطايا التي تمنح للشعراء.

وهذا أنعكس بدوره على الجانب الفني في الشعر إذ لم يعد عند بعض الشعراء أهمية للإجادة والتفوق والإبداع بقدر ما يحرص على العناية المنصبة على إجادة الوزن والقافية وإيراد بعض الأفكار العامة التي ترد في ذهن الشاعر ولذا فإن كثيرا من شعراء هذا العصر لم ينالو في جانب الإجادة سواء في شعرهم أو نثرهم ولم ينافسوا في ميدان الإبداع بطريقة تبين مهارتهم الأدبية وهو ما عرفه النقاد والأدباء في العصور السابقة التي شهدت تنافسا كبيرا بين كبار الشعراء كما هو الحال في العصر العباسي مثلا ومن هنا فإن الشعراء المبدعين الذين نالوا مكانة عالية عند سلاطين المماليك وظلوا في بلاطهم هم قلة من الشعراء من مثل (صفي الدين الحلي) و (شرف الدين الأنصاري) و (شهاب الدين محمود) وغيرهم من الشعراء الذين نالوا مكانة مرموقة لدى قادة المماليك وأمرائهم وسوف نقف على نماذج من أشعارهم في حديثنا عن موضوعات الشعر وأغراضه في هذا العصر .

حيث نبدأ أولاً بأهم الأغراض الشعرية في ذلك العصر وأكثرها من جانب النظم وهو غرض المديح .

أولاً : شعر المديح :-

كان المديح من أهم الأغراض الشعرية في ذلك العصر فقد وجد الشعراء في الحروب الصليبية والتتارية مادة خصبة يستطيعون من خلاها أن يصلوا إلى ما يريدون من مدح سلاطين المماليك الذين اظهروا مقدرة فائقة في التصدي لهجمة التتار الشرسة على الوطن العربي وكذلك المحاولات الصليبية لاحتلال بلاد الشام ومصر وقد حظي كبار القادة من المماليك بتلك المدائح وفي مقدمتهم السلطان (الظاهر بيبرس) الذي مدحه الشعراء بمدائح كثيرة أبانوا فيها عن شجاعته وثباته وعزيمته على المواجهة ومن تلك المدائح ما قاله الشاعر جمال الدين الخشاب الذي قال :

ملك تزينت الممالك باسمه　　　وتجملت بمديحه الفصحاء

كم للفرنج وللتتار ببابه　　　رسل مناها العفو والإعفاء

وطريقه لبلادهم موطوءة　　　وطريقهم لبلاده عذراء

ومن القادة الذين نالوا ذلك المديح السلطان (المظفر قلاوون) الذي تحققت في عهده كثير من الانتصارات الإسلامية ومن تلك المدائح قول الشاعر:

هلك الكفر بالشآم جميعا　　　واستجد الإسلام بعد دحوضه

بالمليك المظفر الأروع　　　سيف الإسلام عند نهوضه

ملك جاءنا بحزم وعزم　　　فأعتززنا بسمره وبييضه

أوجب الله شكر ذاك علينا　　　دائماً مثل واجبات فروضه

وفي شعر المديح يظهر لنا جلياً ما يقوم به كثير من الشعراء من إضافة النعوت الدينية على الممدوحين بطريقة مباشرة وغير مباشرة .

ولاشك أن الجو العام في كثير من تلك القصائد كان مليئا بالمعاني الدينية التي تتحدث عن الجهاد مثلاً والانتصارات الإسلامية أو الذود عن الإسلام وهو الجانب الذي استفاد

منه الشعراء وذهبوا يحشدون فيه معانيهم ومن تلك القصائد ما قاله(صفي الدين الحلي) في نجم الدين الأرتقي - حاكم ماردين وديار بكر - حيث مدحه بقصيدة عبر فيها عن كثير من الصفات التي يتصف بها ذالك الحاكم حيث يقول في أبياته :

ملك يرى تعب المكارم راحة ... ويعد راحات القراع متاعبا

لم تخل أرض من ثناه وإن خلت ... من ذكره ملئت قناً و قواضبا

ترجى مواهبه و يرهب بطشه ... مثل الزمان مسالم و محاربا

فإذا سطا ملأ القلوب مهابة ... وإذا سخا ملأ العيون مواهبا

كالغيث يبعث من عطاه وابلا ... سبطا و يرسل من سطاه حاصبا

كالليث يحمي غابه بزئيره ... طورا وينشب في القنيص مخالبا

كالسيف يبدى للنواظر منظراً ... طلقاً ويمضي في الهياج مضاربا

كالبحر يهدي للنفوس نفائسا ... منه و يبدي للعيون عجائبا

ومن الصفات التي ركز عليها الشعراء وأضفوها على ممدو حيهم حماية حمى الإسلام وحفظ أعراض المسلمين وأموالهم في ذلك يقول شرف الدين الأنصاري في مدح الملك المنصور صاحب حماة :

فلقد أنمت المحصنات أوامنأ ... ولقد أقمت شعائر النساك

سلمت مهجة كل بر مسلم ... وهزمت كل معاند أفاك

كما أنه يذكر له ما قام به من جهاد التتار وتقويض أطماعهم في بلاد الإسلام وكيف أنه أتاح للمسلمين إقامة شعائرهم في أمن وطمأنينة .

ومن مظاهر قوة القائد المسلم اعتياده على حمل السلاح ومحاربة الأعداء وتقدمه للمعارك بكل شجاعة و بسالة فقد درب نفسه وعود سيفه على مبارزة الخصوم يقول شرف الدين الأنصاري في أبياته :

إن السيوف تركتها لا يستقر لها قرار

عودتها سفك الدماء فما لها عنه اصطبار

لم يبق في الدنيا فرنج لا و لا بقي التتار

وفي المقابل فقد صور الشعراء تلك الشجاعة التي أمتاز بها القادة المماليك في حروب التتار وهو ما أدخل الرعب والخوف في قلوب الأعداء وفي هذا يصور الأمير ناصر الدين بن النقيب فرار التتار أمام السلطان(الظاهر بيبرس)

في موقعة (الفرات) حيث يقول مخاطبا إياه :

طلعت عليهم كالصبح يجلو بطلعته من الظلم اعتكارا

فلما أن رآوك فما استطاعوا ثباتاً و لا ملكوا اصطبارا

و ولوا هاربين بلا عقول وباتوا خائفين وهم حيارى

ومن الشعراء من وضع في مدح القائد المسلم هدفا يسعى إليه على الدوام يدعوه إلى تحقيقه وهو تعزيز النصر بنصر آخر كي يتحقق النصر في كافة البلاد الإسلامية ومن ذلك ما قاله القاضي جمال الدين أبي بكر في مدح الملك الناصر (محمد) يقول :

إنا لنرجوه من بغداد يمهلها بماء دجلة يرويها فتصطبر

ويجمع الشمل في دار السلام بمن يودها ويؤدون الذي نذروا

يؤمها وإمام المسلمين معا ثقوا بقولي فهذا منه منتظر

فالشاعر في هذه الأبيات يثير الهمة والحماس في نفس الملك الناصر ليتابع الجهاد ويواصل تحرير البلاد التي اغتصبها المغول وليس مهمة السلطان وجيشه مقصورة على الحفاظ على ما في أيديهم في البلاد فحسب وفي الشطر الثاني من البيت الأخير دلالة علي الاستغاثة وتقوية العزيمة لينهض السلطان بالمسؤولية ويتحمل العبء الذي ارتضاه لنفسه في حماية بلاد الإسلام .

وهكذا فقد نال المديح مكانة بارزة في الشعر المملوكي حيث توفرت الدوافع المناسبة التي استغلها الشعراء وراحوا يتقربون للقادة من خلالها ويعددون جملا من المناقب والمآثر التي تميز بها ممدوحوهم ومما يذكر للمدائح هنا أنها ارتبطت في كثير من الأحوال بالمعارك الإسلامية التي أنتصر فيها المسلمين على الصليبيين والتي هزموا فيها التتار وأخرجوهم من بلاد الشام كما حدث في أكبر معركة وهي معركة عين جالوت سنة٦٥٨هـ فقد أذاع الشعراء قصائدهم في خبر تلك المعركة وحثوا السلاطين على الثبات والتصدي للصليبيين حتى يخرجوا من كل شبر من أراضي المسلمين وهذا هو الجانب الذي عزز حماسة هؤلاء السلاطين ودفعهم إلى النهوض والمواصلة حيث تفاعلوا مع تلك القصائد الشعرية التي نظموها أولئك الشعراء .

ثانيًا : غرض الرثاء :-

شاع غرض الرثاء كغيره من الأغراض فقد توجه الشعراء بأشعارهم إلى رثاء من فقدوه سواء من الأقربين من السلاطين المماليك وأمرائهم ووزرائهم وعلمائهم وحتى رثاء البلاد التي سقطت في أيدي الصليبيين و التي أصابتها كوارث الطبيعة لأجل ذلك كان غرض الرثاء ينشأ ضمن أغراض الشعر خلال الحروب الصليبيه والمغولية فقد تناول الشعراء هذا اللون وأكثروا من النظم فيه ولم يتركوا حادثة مؤلمة إلا ونظموا فيها شعرا حزينا ومن المراثي التي رثي بها سلاطين المماليك تلك القصيدة التي نظمها الشاعر صفي الدين الحلي في رثاء الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤٢هـ يقول في قصيدته الرائية :

وفى لي فيك الدمع إذ خانني الصبر ... وانجد فيك النظم إذ خذل النصر

وأضحت تقول الناس والدست والعلى ... كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر

توفيت الآمال بعد محمد ... وأصبح في شغل عن السفر السفر

وزالت حصاة الحلم عن مستقرها ... وأصبح كالخنساء في قلبها صخر

وساوى قلوب الناس في الحزن رزؤه ... كأن صدور الناس في صدرها جمر

فإن أظلمت أرض الشآم لحزنه ... فلم يخل من ذاك الصعيد ولا مصر

قضى الناصر السلْطان من بعد ما قضى ... فروض العلا طرأ وساعدهُ الدهر

ولم يغني عنه الجأش والجيش واللهى ... وفرط النهى والحكم والنهي والأمر

ولا الخيل تجري بين آذانها القنا ... بحرب العدا والدهر في دمهم حمر

لدى معرك خاضت به الخيل في الوغى ... من الدم فيما خاضت البيض والسمر

فالشاعر في هذه الأبيات يرثي الملك الناصر (محمد قلاوون) في أبيات من البحر الطويل ورويها الراء وقد حاكى فيها الشاعر أحد شعراء العصر العباسي وهو أبو تمام

بل لقد عارضه في هذه القصيدة فقد توفرت كل عناصر المعارضة من البحر والروي وكذا الموضوع وإن كان النقاد لا يعدون اتفاق الموضوع شرطا ولكنه من مكملات المعارضة الشعرية .

فقد عارض (صفي الدين الحلي) تلك القصيدة الرائية التي أنشدها أبو تمام في رثاء (محمد ابن حميد الطوسي) التي يقول في مطلعها :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماءها عذر

توفيت الآمال بعد محمد وأصبح في شغل عن السفر السفر

تردى ثياب الموت حمراً فما دجى لها الليل إلا وهي من سندس خضر

الخ الأبيات التي تعد من عيون المراثي في الشعر العربي وقد حاول صفي الدين الحلي أن يوجد له موضوعا من خلال معارضته لهذه القصيدة ولكنه كما يظهر لم يستطع مجاراة أبي تمام في صورته الشعرية ولا في خيالاته المجنحة ولا عمق الصورة بل ذهب يضمن أشطرا كثيرة من قصيدة أبي تمام ويوردها في أبياته وكأنه يريد أن ينبه إلى إعجابه بأبي تمام وهو إنما يحاكيه بهذه القصيدة .

ومن المراثي أيضا تلك المرثية التي نظمها (صفي الدين الحلي) في رثاء (شهاب الدين محمود) - رئيس ديوان الإنشاء بدولة المماليك - إذ يقول :

حبل المنى بحبال اليأس معقود والأمن من حادث الأيام مفقود

والمرء مابين إشراك الردى غرْض صميمه بسهام الحتف مقصود

لا تعجبن فما في الموت من عجب إذ ذاك حد به الإنسان محدود

فالمستفاد من الأيام مرتجع والمستعار من الأعمار مردود

وللمنية أظفار إذا ظفرت رأيت كل عميد وهو معمود

لم ينجو بالبأس منها مع شراسته ليث العرين ولا بالحيلة السيد

الم يقولوا بأن الشهب خالدة طبعا فأين شهاب الدين محمود

من كان في علمه بين الورى علماً
يهدي به أن زوت أعلامها البيد

ففي هذه الأبيات يفتتح الشاعر قصيدته بمعان مفعمة بالحكمة يردد فيها ذكر المنية وحقيقة الموت والمصير المحتوم لكل إنسان ثم يستظهر الشاعر حقيقة أخرى وهي أن كل ما يستفيده الإنسان من هذه الدنيا مرتجع فكل عارية لابد أن ترد .

ونوع آخر من المراثي وهو رثاء بيت المقدس الذي حرره (صلاح الدين الأيوبي) من أيدي الصليبين سنة ٥٨٣هـ إلا أنه أسترده مرة أخرى من قبل الصليبيين في زمن الملك الكامل سنة ٦٢٦هـ ليسترده بعد ذلك الملك الناصر داود في سنة ٦٣٧هـ ليعود ثانية إلى المسلمين .

ولقد كان سقوط المسجد الأقصى في أيدي الصليبيين الحافز الأكبر للبكاء واستنفار الهمم فهذا الشاعر (أبو يوسف شهاب الدين ابن المجاور) يدعو عينيه إلى البكاء ليل نهار بكرة وعشية لعل الدمع يطفئ ما في قلبه من توقد وحرقة حيث يقول في قصيدته :

أعيني لا ترقي من العبرات
صلي في البكا الآصال بالبكرات

لعل سيول الدمع يطفئ فيضها
توقد ما في القلب من جمرات

وياقلب أسعر نار وجدك كلما
خبت بادكار يبعث الحسرات

ويا فم بح بالشجو منك لعله
يروح ما ألقى من الكربات

على المسجد الأقصى الذي جل قدره
على موطن الاخبات والصلوات

على منزل الأملاك والوحي والهدى
على مشهد الإبدال والبدلات

على سلم المعراج والصخرة التي
أنافت بما في الأرض من صخرات

على القبلة الأولى التي اتجهت لها
صلاة البرايا في اختلاف جهات

على خير معمور وأكرم عامر
وأشرف مبنى لخير بنات

لتبك على القدس البلاد بأسرها
وتعلن بالأحزان والترهات

لتبك عليها مكة فهي أختها
وتشكو الذي لاقت إلى عرفات

لتبك على ما حل على القدس طيبة
وتشرحه إلى أكرم الحجرات

فابن المجاور في هذه الأبيات ينطلق مبتدئا بالبكاء والحرقة والأسى لما حل بالمسجد الأقصى من أسره في أيدي الصليبين ثم يتجه إلى الشكوى لعلها تجدي في استعادته ويذكر في ذلك بعض السمات والفضائل التي أمتاز بها المسجد الأقصى فهو القبلة الأولى للمسلمين وإليه عرج بالأنبياء .

ولاشك أن العاطفة في هذه الأبيات واضحة قوية فالشاعر يعبر عما أصاب المسلمين من أمر فادح سلبهم أحب المقدسات الإسلامية إليهم كما أنه يستنهض الهمم باستعادة بيت المقدس واستنقاذه من أيدي الصليبيين .

ثالثاً: غرض الوصف :-

كان لشعر الوصف نصيب وافر في شعر العصور المتأخرة وقد كان وفيراً في العصور السابقة حتى إن ابن رشيق القيرواني قال : (إن الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف فالوصف في حقيقة الأمر هو عمود الشعر وعماده بل إن كل أغراض الشعر هي في حقيقتها وصف فالمدح وصف نبل الرجل وفضله والنسيب وصف النساء والشوق إلى لقائهن والرثاء وصف محاسن الميت والحديث عن مناقبه وآثره والهجاء وصف سوءات المهجو وتصوير نقائصه ومعايبه).

وهكذا نستطيع أن ندخل جميع فنون الشعر تحت الوصف فهو كالدوحة الملتفة الأغصان الفارعة المترامية الظلال وبهذه الصورة يقدم لنا شعر الوصف فائدة عظيمة في رسم الحياة لكل عصر من العصور بدءا بالعصر الجاهلي حتى عصرنا هذا .

وفي العصر المملوكي سار الشعراء على طريقة أسلافهم في وصف مظاهر الحياة وطبيعة المجتمع فقد أكثروا من الوصف ولم يتركوا شيئا من جوانب حياتهم ومجتمعهم إلا وصفوه غير أن طبيعة الحياة جعلت الشعراء يتناولون موضوعات أخرى في هذا الجانب تبعا لطبيعة العصر الذي عاشوه والظروف الحربية والمواجهات مع الصليبيين والتتار فقد دعاهم ذلك إلى تصوير تلك الأحوال حيث نجد وصفا للمعارك التي خاضها المسلمون في ذلك العصر وإيراد صور البطولة التي كان عليها المجاهدون في حروبهم.

ومن الجوانب التي اعتاد الشعراء على وصفها في كل عصر ما يتصل بمظاهر الطبيعة بما تحويه من جمال وبما تضم بين جوانحها من ظلال وشجون وزهور ورياحين وجبال وأودية وتضاريس ومعالم فكثيرا ما نرى الشعراء يتوجهون إلى هذه المعالم التي توجد في طبيعتهم فيحاولون أن يبثوا فيها معالم الحركة ويصوروها بصورة تجعلها تتناغم وتزهو وتفرح وتختال في مشيتها وصدق البحتري حيث قال :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا ... من الحسن حتى كاد أن يتكلما

لقد قصد كثير من الشعراء القدماء مظاهر الطبيعة وحاولوا أن يجسدوها في أشعارهم ويحولها إلى كائنات متحركة ومن أولئك الشعراء صفي الدين الحلي الذي يشخص فصل الربيع فيقول :

خلع الربيع على غصون البان   حللا فواضلها على الكثبان
ونمت فروع الدوح حتى صافحت   كفل الكثيب ذوائب الأغصان
وتتوجت هام الغصون و ضربت   خط الرياض شقائق النعمان
وتنوعت بسط الرياض فزهرها   متباين الأشكال و الألوان
والظل يسرق في الخمائل خطوه   والغصن يخطر خطرة النشوان
وكأنما الأغصان سوق رواقص   قد قيدت بسلاسل الريحان
والشمس تنظر من خلال فروعها   نحو الحدائق نظرة الغيران

فصفي الدين الحلي في هذه الأبيات يصف الربيع وما أحدثه من جمال في تلك الطبيعة وكيف أنه كسى الأرض خضرة حتى تحولت إلى زهور وأغصان يستمتع الناس بجمالها وظلالها كما يصور الأغصان وهي تهتز وتتحرك ويرتبط بعضها ببعض حتى أنها تحجب ضوء الشمس ومع ذلك فالشمس تنظر إلى الأرض نظرة الغيران ممن حجبها عن الناس وحجبها عن الأرض والحقيقة أن الشاعر لا يبعد كثيرا في وصفه عما وصفه البحتري وأبو تمام وغيرهما من الشعراء من خلال تلك الطبيعة الجذابة والظلال المترامية التي توقفوا عندها.

ويلفت نظرنا في شعر الوصف شيوع ألفاظ الزهر والورد والنرجس والروض والدر والياقوت والجواهر فهذه الألفاظ أكثر منها الشعراء في وصف الطبيعة وأرادوا أن يكشفوا من خلالها عن جمال الطبيعة.

ويظهر ذلك في أبيات سليمان الحموي التي يصف فيها حديقة قد كساها الربيع بساطا من سندس تحف به صنوف الزهور كأنها الجواهر فإذا تنفس الصبح وتكنف الروض شعاع الشمس بدا وكأنه قد غشي بذائب الذهب يقول في أبياته:

وحديقة أحداق نرجسها غدت مكحولة بمراود الأمطار

حفت بورد شق عند كمامه كالخد يزهو باخضرار عذار

بسط الربيع بها مطارف سندس قد رصعت بجواهر الأزهار

ومن الأوصاف العجيبة التي عمد إليها الشعراء من خلال مشاهداتهم للحياة الاجتماعية تلك الأبيات التي شبه فيها الشاعر عبد الجليل المواهبي نافورة الماء برأس عجوز أنتفش شعرها الأبيض وأضطرب يمنة ويسرة فكأنها ثملة من سكر أو مرتعشة من مرض تلطم وجنتيها حزنا وتفجعا يقول في وصف تلك الفوارة :

انظر إلى فوارة قد حكت رأس عجوز أبيض اللمتين

منتشر الشعر يرى دائماً مضطربا يميل للجانبين

كأنها ثملى من الخمر أو رعشاء تلطم الوجنتين

والخلاصة أن غرض الوصف في هذا العصر لم يخلو من التجديد رغم أن شعراءه لم يقطعوا أسباب اتصاله بالوصف التقليدي القديم فقد أضافوا شيئاً من التجديد والتحسين إضافة إلى ذلك فأن مشاهدات الشعراء عرضت لكثير من المشاهد ووصفها بأسلوب جديد في بعض الأحيان وبأسلوب آخر يميل إلى السخرية والهزل أحياناً أخرى

وقد استطاعت أن تلتقط بعض الصور الأدبية التي نجح الشعراء في إظهارها بشكل جيد .

رابعاً : المدائح النبوية :-

المدائح النبوية لون من ألوان الشعر الديني الذي عبر عنه الشعراء منذ البدايات الأولى وتحديدا بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فقد كان شعراء الصحابة يتأملون في تلك القيم الإسلامية والمعاني الدينية الخالصة التي جاء بها المصطفي صلى الله عليه وسلم وما أزجاه للبشرية من الهداية والخير بعد أن أبان لهم عن الدين الخالص الذي هو خاتمة الأديان فكان ذلك هو التغيير الحقيقي في حياة العرب قبل الإسلام لتتغير بعد ذلك المعاني الفكرية والاجتماعية والدينية التي شاعت قبل مجئ الإسلام ولاشك أن المعاني التي توقف عندها الشعراء كانت تدور في أثر الدعوة في نفوس الناس وبيان ما أتصف به الرسول صلى الله عليه وسلم من صفات الداعية الناصح الرحيم الذي حمل هذه الرسالة إلى الناس كافة ليخرجهم من من دياجير الظلمة إلى أنوار الهداية والإيمان .

ومن أولئك الشعراء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحه وكعب بن مالك وغيرهم من الشعراء الذين نظموا تلك المدائح مشيدين بشخصية النبي صلى الله عليه وسلم وبأخلاقه وسماحته وشفقته ورحمته بأمته لقد تواصل هذا اللون في الشعر في العصور التالية - وبخاصة في القرن السابع والثامن والتاسع الهجري - ولكنه أرتبط بمذهب شاع في تلك الفترة وهو التصوف الذي حمل كثيرا من الشعراء على أن ينظموا معانيهم في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وأن يحملهم ذلك إلى الغلو في مدائحهم وهو ما سنعرض له في هذا الجانب .

ولاشك أن المدائح النبوية هي" لون من ألوان التعبير عن العواطف الدينية وباب من أبواب الأدب الرفيع لأنها صدرت من قلوب مفعمة بالحب الصادق والإخلاص المكين.

ولابد من الإشارة أولاً إلى المدائح النبوية التي نظمت في الغالب بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم هي أحد الموضوعات التي شاعت في العصر المملوكي ولكن مصطلح المديح يقال عادة للإحياء كما أن مصطلح الرثاء يذكر عن الشعر الذي قيل في الأموات ونحن ندعو الشعر الذي يقال في ميت رثاء ولكنه في الرسول صلى الله عليه وسلم يقال له مديح وكأن في استبدال كلمة مديح بكلمة رثاء إشارة إلى أن النبي صلى الله عليه

وسلم لما بلغ به من الشريعة السمحة والآداب الخالدة تلك الشريعة التي هي حية في زماننا وهي المنهج الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم .

أما شعر الرثاء فانه لا يسمى بهذه التسمية إلا إذا قيل في أعقاب الموت أما إذا قيل بعد زمن طويل فهو مديح .

ومن هنا أمكن إن نقول أن حسان بن ثابت رثى الرسول صلى الله عليه وسلم وأن البوصيري مدحه علماً بأن كثيرا من الفكر قد تكررت في شعر الشاعرين والسبب في اختلاف التسمية أن الأول نظم قصائده بعيد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وأن الثاني قالها بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بعدة قرون .

ومما ينبغي الإشارة إليه في هذا الجانب هو ذلك الفارق الكبير في المضمون الشعري وفي المعاني التي توارثت عند الشعراء بين ما قيل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبين ما قيل في العصور المتاخرة ومنها العصر الذي ندرسه وهو العصر المملوكي الذي طرأ فيه على المضمون بعض التجاوز والغلو جعل بعض الشعراء يخرجون عن المعاني التي ذكرت في صفات النبي صلى الله عليه وسلم سواء ما ذكر في القرآن الكريم أو ما ذكره صلى الله عليه وسلم عن نفسه وهو ما يجعلنا نتوقف عند بعض المعاني التي قالها بعض الشعراء ولما جوزوا ذلك لأنفسهم ؟ حيث نسعى إلى تفسير الغلو الذي شهدته المدائح النبوية ذلك الغلو الذي يقضي بأنه لولا محمد صلى الله عليه وسلم ما ظهر شمس ولا قمر ولا نجوم ولا أنهار ولا شجر ولا بدر ولا غير ذلك . نريد أن نعرف لم صح لابن نباته المصري أن يقول :

لولاه ما كان أرض ولا أفق ولازمان ولا خلق ولا جيل

ولا مناسك فيها للهدى شهب ولا ديار بها للوحي تنزيل

ولم جاز للبوصيري أن يحكم بأن محمد صلى الله عليه وسلم دان الأنبياء قبل أن يخلق وأن كل آية أتوا بها اتصلت بنوره قبل أن تصل إلى الناس حيث يقول في بردته :

وكل آي أتى الرسل الكرام بها فإنما اتصلت من نوره بهم

ولم حق له أن يقول :

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حدوث الحادث العمم

فأن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علوم اللوح و القلم

وقد حاول كثير من النقاد أن يفسروا ما وقع فيه الشعراء من تجاوز في هذه الأبيات ومن أولئك زكي مبارك في كتابه ((التصوف الإسلامي)) حيث يذكر تفصيلا لذلك الغلو يقول فيه:(هذا الغلو لا يفهم إلا إذا عرفنا أنه يرجع إلى أصل من أصول التصوف وهو القول بالحقيقة المحمدية والحقيقة المحمدية هي العماد الذي قامت عليه قبة الوجود وهي صلة الوصل بين الله والناس وهي القوة المدبرة التي يصدر عنها كل شئ وقد أعتمد زكي مبارك في تفسيره هذا على نص لابن عربي في الفتوحات المكية يقول فيه:(اعلم أن الله لما خلق الخلق جعلهم أصنافا وجعل في كل صنف خياراً واختار في الخيار خواص وهم المؤمنون واختار من المؤمنين خواص وهم الأولياء واختار من هؤلاء الخواص خلاصة وهو الأنبياء واختار من الخلاصة نقاوة وهم أنبياء الشرائع المقصورة عليهم واختار من النقاوة شرذمة قليلة هم صفاء النقاوة وهم الرسل اجمعهم وأصطفى واحد من خلقه وهو منهم وليس منهم وهو المهيمن على جميع الخلائق جعله الله عمداً أقام عليه قبة الوجود وجعل الله له أعلى المظاهر وأسناها صح له المقام تعييناً وتعريفاً فعلمه قبل وجود طينة البشر وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

والحقيقة أن المتصوفة قد طرقوا باب الغلو حينما أتوا بتلك المعاني والأوصاف التي لم يوصفْ بها النبي صلى الله عليه وسلم في القران الكريم ولم يصف بها نفسه أو يتحدث عنها وإنما كان يقول (إنما أنا عبد الله ورسوله ، وإنما أنا بشر مثلكم) وهو الجانب الذي غفل عنه كثير من شعراء المدائح النبوية وتاهوا في أوصافهم وخرجوا عن المنهج الصحيح الذي يعرفه كل مؤمن ولذا فقد خاض أولئك الشعراء في باب الغلو والإفراط وسارت كثير من قصائدهم نحو هذا الاتجاه .

أما أول من فتح باب المدائح النبوية في العصر المملوكي فهو البوصيري وخاصة في قصيدته المشهورة بالبردة ولولا ما أحاط البوصيري قصيدته تلك به من المناسبة التي ذكرها والرؤيا الذي ادعى انه رآها لما نالت تلك القصيدة من الشهرة ما نالت حيث يذكر قصة تلك القصيدة فيقول : (كنت قد نظمت قصائد في مدح الرسول صلى الله

علية وسلم منها ما كان قد اقترحه علي الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير ثم انتقل لي بعد ذلك مرض الفالج فأبطل نصفي ففكرت في عمل قصيدتي هذه فعملتها واستشفعت بها إلى الله تعالي في أن يعافيني وكررت إنشادها ونمت فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فمسح وجهي بيده المباركة وألقى علي بردة فانتبهت ووجدت في نهضة فقمت وخرجت من بيتي ولم أكن أعلمت بذالك أحدا فلقيني بعض الفقراء فقال لي أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت فيها الرسول صلى الله عليه وسلم فقلت أيها ؟ فقال الذي أنشأتها في مرضك وذكر أولها فأعطيته إياها ثم شاع المناع بعد ذلك)

(البديعيات):-

بعد وفاة البوصيري سنة ٦٩٦هـ ظهر غير شاعر ونظموا في جانب المدائح وعارضوا تلك القصيدة ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بابن جابر الأندلسي الذي رحل إلى المشرق فدخل الشام ومصر واستوطن حلب ثم رجع إلى الأندلس وقد افتتن ابن جابر بقصيدة البردة وظهر أثرها في شعره كقوله:

يا أهل طيبة في مغناكم قمر ... يهدي إلى كل محمود من الطرق

كالغيث في كرم والليث في حرم ... والبدر في أفق والزهر في فلق

وقد شغل نفسه بمعارضة البردة ولكنه أراد أن يبتكر فناً جديداً في تلك المدائح وهو أن يضمن كل بيت من أبياتها لوناً من ألوان البديع وهو الجانب الذي عرف بالبديعيات يقول في مطلع بديعيته :

بطيبة انزل ويمم سيد الأمم ... وانشر له المدح وأنثر طيب الكلم

وقد رأى معاصرو ابن جابر قيمة هذا الفن الجديد ومن أولئك صديقه الأديب أبو جعفر الألبيري الذي شرح بديعيته واعترف له بالسبق إذ قال في مقدمة الشرح :(بادرة في فنها فريدة في حسنها تجني ثمرة البلاغة من غصنها وتنهل سواكب الإجادة من مزنها لم ينسج على منوالها ولا سمحت طريقة بمثالها)

وفي عصرابن جابْر وضع صفي الدين الحلي المتوفى سنة ٧٥٠هـ بديعيته المّسماة (الكافية البديعية في المدائح النبوية) ومطلعها :

إن جئت سلعا فسل عن جيرة العلم ... واقري السلام على عرب بذي سلم

ثم جاء عز الدين الموصلي ونظم بديعيته الذي أسماها (التوصل بالبديع إلى التوسل بالشفيع) ومطلعها :

براعة تستهل الدمع في العلم ... عبارة عن نداء المفرد العلم

وأعقبه بن حجة الحموي ونظم بديعيته وشرحها في كتابه المسمى (خزانة الأدب) وجاء في مطلعها :

لي في ابتدا مدحكم ياعرب ذي سلم
براعة تستهل الدمع في العلم

وجاء السيوطي بعد ذلك فعارض ابن حجة ونظم بديعيته التي اسماها (نظم البديع في مدح خير شفيع) ومطلعها :

من العقيق ومن تذكار ذي سلم
براعة العين في استهلالها بدم

ثم جاء شعراء آخرون وكتبوا في المدائح النبوية ومنهم عبد الغني النابلسي وقاسم بن محمد الحلبي وأبو الوفاء الفرضي وعبد الهادي الأبياري وطاهر الجزائري وعائشة الباعونية فنظموا في البديعيات .

وهكذا نصل إلى محصلة خلاصتها أن المديح النبوي اتخذ في العصور الأخيرة قالباً جامداً اقتصر فيه على البحر البسيط وروي الميم وعلى استعراض الشاعر لفنون البديع من ثنايا ألفاظ ترصف يركز فيها على استحضار لون من ألوان البديع في كل بيت من أبيات القصيدة التي ظاهرها وموضوعها مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وهي التي تدعى البديعيات .

" المؤثرات العامة في الشعر المملوكي "

تعود الدارسون حين يكتبون عن شاعر قديم أو أديب من الأدباء أن يبينوا الجوانب التي أثرت في أدب هذا الأديب وجعلته انعكاسا لعصره أو تعبيرا عن مجتمعه أو وصفا لخواطره ومشاعره وهكذا يعددون تلك المؤثرات التي تركت بصماتها على العصر ليضعوا التصور العام لشعر هذا الشاعر .

ولاشك أننا في دراسة عصر من العصور الأدبية لابد أن نذكر أن هناك عوامل خارجية أثرت في أدب ذلك العصر سواء أكانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو غير ذالك.

وهذه الآثار المختلفة لها صورتها الواضحة في ذلك الأدب بشكل عام وهو ما يجعلنا نقف عند تلك المؤثرات الموضوعية التي شاهدها الشعر في العصر المملوكي وهي مؤثرات كان لها أثرها في التتابع الشعري بشكل عام ومنها على سبيل المثال :

١- كثرة عدد الشعراء في هذا العصر بشكل يصعب على الدارسين إحصاؤه فقد دخل في نظم الشعر كل من له صلة بالأدب ومن ليس له صله .

٢- أن الشعراء في هذا العصر لم يكونوا متفرغين لنظم الشعر وحده كما كان الشعراء في العصور السابقة فقد انعدم التفرغ الذي كان يتمتع به الشاعر القديم فصار يعمل في عمل آخر فهو وراق أوكحال أو دهان أو بزار أو جزار أو غير ذلك من الحرف التي اشتهر بها كثير من شعراء العصر المملوكي .

٣- أن بواعث الشعر في العصور السابقة اختلفت عن بواعثه في العصر المملوكي وقد كان الشاعر من قبل يطمح إلى إرضاء أميره أو استدرار خيره ونيل عطاياه أو إرضاء نفسه وما تهوى من مجد أدبي أو اجتماعي أو يقول الشعر فرحا بنصر أو بكاء على هزيمة أو تفجعا على فقيد

أما في العصر المملوكي فقد ضل الحاكم طريقه إلى الشاعر كما ضل الشاعر طريقه إلى الحاكم فلم يعد بين الرجلين من لقاء إلا في النادر لان لغة هذا اقتربت من لغة ذاك

فالحاكم في تلك العصور هو في معظم الأحيان من الأتراك ولا يفقه من العربية إلا القليل .

٤ـ كذلك من العوامل المؤثرة في العمل الشعري تلك الثقافة الضئيلة المحدودة التي يصيبها الشاعر إذ كان يكتفي باطلاعه على مجموعة من العلوم والقليل من شعر الأقدمين وما شاء من العلوم الحضارية والإنسانية ليظن نفسه قد أصبح في عداد الشعراء المرموقين .

" النثر الفنى فى العصر المملوكى "

شهد النثر الفني في العصر المملوكي نشاطاً ملموساً وحركة قوية أسهمت في النتاج الأدبي في ذلك العصر. وحينما نتحدث عن النثر الفني الذي يتمثل في نوعيه الكتابي والخطابي فإننا نتحدث أولاً عن غزارة المؤلفات الأدبية واللغوية التي شهدها ذلك العصر. فقد تهيأت عوامل عديدة للنهضة الأدبية في جانب النثر لعل من أهمها ما يتصل بديوان الإنشاء في ذلك العصر وما تكتب فيه من الرسائل المتعددة. وكذا ما يخطه الكتاب من كتابات فنية تتمثل في الرسائل الأدبية والمقامات والتنافس في ألوان البيان.

وكذا ما تركته الخطابة من أثر في النفوس وذلك تجاوباً مع طبيعة العصر السياسية والاجتماعية والثقافية. وكانت تلك الخطب تركز في أثناء الحروب مع الصليبيين على استنهاض الهمم وحث النفوس على التصدي للصليبيين والمشاركة في الجهاد من أجل نصرة الإسلام.

أنواع الكتابة الفنية:

نبدأ أولا في دراستنا للنثر الأدبي بالكتابة الفنية وأثرها بين صنوف الأدب. ونقصد بها ذلك النثر البليغ الموشى بألوان البديع الذي كان يكتبه الكتاب في موضوعات متعددة حيث يشمل هذا النثر عدة ألوان من أهمها:

أولاً: الرسائل الفنية الأدبية: التي ينشئها الكتاب يصورون فيها عواطفهم ومشاعرهم ويضمنونها وصف الطبيعة وكل ما يتصل بالحياة والمجتمع والقضايا الأدبية والاجتماعية المختلفة.

ثانياً: الرسائل الديوانية: وهي التي تصدر عن ديوان الانشاء باسم سلطان المماليك وتعبر عن أحوال الدولة المختلفة من سياسية وعسكرية واجتماعية واقتصادية وغير ذلك.

وكان رؤساء ديوان الانشاء هم الذين يتولونها حيث تتناول رسائلهم كل ما يصدر عن السلطان إلى مختلف الجهات سواء إلى العمال أو القادة أو الأمراء أو غيرهم.

ثالثاً: الرسائل الإخوانية: وتتضمن ما يكتبه الأدباء بعضهم لبعض من رسائل الشوق والتهنئة والاستعطاف و العتاب والرجاء والشفاعة وغير ذلك من الموضوعات.

رابعاً: فن المناظرات والمفاخرات: ومن أمثلته المفاخرة بين العلوم للقلقشندي. وكذلك المفاخرة بين السيف والقلم أيضاً. وقد اورد ذلك في القلقشندي كتابه(صبح الأعشى).

والمفاخرة هي المناظرة وتزيد عليها بأنها تكون في مقامي التفاخر والثناء وهذا الفن من ابتكارات الأندلسيين وقد ذاع في المشرق وبرع فيه الأدباء براعة فائقة.

خامساً: فن المقامات: وكتابه كثيرون في هذا العصر منهم على سبيل المثال ابن نباته وابن أبي الحديد الحلبي والسيوطي وغيرهم.

" أسلوب الكتابة الفنية فى عهد المماليك "

تأثرت الكتابة الفنية في هذا العهد بما سبقها. وكانت كتابة الإنشاء والترسل في مصر في عهد الفاطميين والأيوبيين على مثل ما كانت عليه في المشرق من إتباع طريقة ابن العميد. بل ربما قل فيه الإلتزام بالسجع ومحسنات البديع.

ولما ظهر القاضي الفاضل في القرن السادس الهجري وتولى الكتابة في ديوان الانشاء للأيوبيين أراد أن يحاكي كتاب المشرق في البديع فزاد عليهم وأربى واخترع طريقة جديدة عرفت بالطريقة الفاضلية. وتقوم على الاعتناء بفنون البديع من السجع والجناس والطباق والتورية واللجوء إلى المنظوم من الشعر وحل أبياته والاعتماد عليها في الكتابة، وكذا اقتباس الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وتضمين الأمثال والحكم ومشهور الأقوال.

وقد ظهر في كتاباته في ديوان الإنشاء ذوقه الأدبي وسعة مادته في اللغة ووفرة محفوظه في الأدب. ولقب القاضي الفاضل بشيخ الكتاب أو صاحب الطريقة الخاصة في الكتابة كما لقب العماد الاصبهاني بعمدة المنشئين.

وقد سار الكتاب في العصر المملوكي على طريقة القاضي الفاضل وجرى في حلبة الكتابة من ليس له باع في هذا المجال ممن اعتمدوا على الإكثار من المحسنات البديعية والتكلف فيها لدرجة ابعدتها عن الجمال الفني.

أما في الجانب الآخر فقد ظهر كتاب آخرون امتلكوا ناصية البيان ووقفوا على حدود الكتابة الأدبية، ووجهوا كتاباتهم إلى الأساليب البلاغية الجميلة التي تنبى عن مقدرة الكاتب، وتبعد المعاني عن الغموض والتكلف وذلك حين جاءت المعاني عند بعض الكتاب لها الاهتمام الأكبر. بعيداً عن الاغراق المتكلف في محسنات البديع أو الاتيان بالألفاظ على حساب المعاني، وهو ما استثقله كثير من النقاد الذين رأوا أن ضياع المعنى في غمرة الاكثار من المحسنات يعد عيباً وقع فيه كثير من كتاب النثر الفني في العصور المتأخرة. فاللفظ والتركيب لهما دور هما في الرسالة الأدبية. كما أن

المضمون الأدبي له أهميته في بيان الفكرة التي يعبر عنها الكاتب وبدون ابرازها والافصاح عنها يكوّن الكاتب قد وقع في التكلف الذي يأباه الطبع وتنفر منه النفوس.

والكتابة الفنية في عصر المماليك لم تسر على طريقة واحدة طوال ذلك العهد الذي دام عدة قرون وإنما تنوع فيه مستوى الكتابة في بداية العصر وفي نهاية عهد المماليك البحرية. ثم التحول الكبير والاغراق في البديع والتكلف الذي حدث في عهد الممالك البرجية الذين أحالوا الكتابة الفنية إلى لون من ألوان الزخرفة البديعية والمقابلات والجناسات مع ما يصاحب ذلك من السجع والطباق وغير ذلك.

وقد فسر كثير من النقاد ومؤرخي الأدب ذلك الأغراق في الفنون البديعية الذي شهده آخر العصر المملوكي حتى أخذت الكتابة الفنية في الضعف والجمود وسبب ذلك في نظر أولئك النقاد هو انصراف الكتاب عن العناية بالمعاني والأفكار واختيار الأساليب الملائمة لها وانشغالهم بتزيين الألفاظ وتجميلها بالسجع وغيره من ضروب التحلية البديعية. فإذا قرأنا رسالة لكاتب في أواخر هذا العصر نجد أنها لا تشتمل على معنى رائع أو فكر بديع لأن صاحبها كان يفكر في الألفاظ المزخرفة أولاً ليؤلف منها المعاني ثانياً. وهذا فيه تناقض واضح في أصول الكتابة الأدبية لأن الذي يسوق إلى اللفظ هو المعنى وليس العكس.

وقد برر الكتاب ما حدث من ضعف في الكتابة الأدبية. بل وحاولوا اصلاحها وتجديد مناهجها (فشهاب الدين النويري) صاحب كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) يرجع هذا الضعف الملحوظ إلى دخول المدعين في وسط المنشئين فيقول: (وقد اتسع الخرق في ذلك ودخل في الكتابة من لا يعرفها البتة) وزاد على الاحصاء، حتى أن فيهم من لا يفرق بين الضاد والظاء وصار الآن حد الكتابة عند هؤلاء الجهال أن يكتب أحدهم على المجود مدة يتقن بزعمه اسطراً فإذا رأى من نفسه أن خطه قد جاد أدنى جودة أصلح بزته وركب برذونه أو بغلته وسعى في الدخول إلى ديوان الإنشاء والانضمام إلى أهله، ولعل الكتابة إنما حصل ذمها بسبب هؤلاء وأمثالهم. وصدق القائل حين قال:

تعس الزمان لقد أتى بعجائب	ومحا صنوف الفضل والآداب
وأتى بكتاب لو انبسطت يدي	فيهم رددتهم إلى الكتاب

ويعلل القلقشندي ذلك في كتابه صبح الأعشى بالعجمة السائدة في نفوس الرؤساء وعدم استطاعتهم التفريق بين البليغ وغيره. وضياع منزلة البلغاء القريبين منهم وتقريبهم لضعاف الملكات وانصاف المترسلين. يقول القلقشندي: (وإنما تقاصرت الهمم عن التوغل في صناعة الكتابة والأخذ منها بالحظ الأدنى لاستيلاء العجم على الأمر وتوسيده لمن لا يفرق بين البليغ والبليد لعدم إلمامه بالعربية والمعرفة بمقاصدها حتى صار الفصيح لديهم أعجم. والبليغ في مخاطبته ابكم ولم يسع الأخذ من الصناعة بحظ إلا أن ينشد:

وصناعتي عربية وكأنني ... ألقى بأكثر ما أقول الروما
فلمن أقول وما أقول وأين لي ... فأسير لا بل أين لي فأقيما

أما ابن خلدون فيقول في مقدمته ناقداً كتاب عصره: (وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الاسجاع والتزام التقفية، وتقديم النسيب بين يدي الغرض. وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفترقا الا في الوزن. واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية. وقصر الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخلطوا الأساليب فيه وهجرو المرسل منه خصوصاً أهل المشرق).

ثم يقول مبينا علة ذلك وما ظهر له من أثر في الكتابة: (وما حمل عليه أي على هذا الأسلوب – إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه من مطابقته لمقتضى الحال. فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده في البلاغة وانفساح خطوه. فولعوا بهذا السجع يلفقون به مانقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومطابقة الحال فيه. ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعية ويغفلون عما سوى ذلك، وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر انحاء قولهم كتاب المشرق وشعراؤه في هذا العهد).

عوامل ضعف الكتابة فى أواخر العصر المملوكى:

عزا بعض الكتاب والنقاد ضعف مستوى الكتابة في أواخر العصر المملوكي لعدة أسباب منها ما يأتي:

١- ضعف الملكات والمواهب لشيوع العجمة وغلبة الأعاجم على الأمر في البلاد الإسلامية. وعدم تشجيعهم فيها لذوي المكانة في صناعة الأدب والإنشاء.
٢- ضعف الثقافة الأدبية وقلة محصول كثير من الكتاب في علوم العربية.
٣- العزلة التي عاش فيها الأدباء في هذا العصر فلم يكن لأكثرهم رحلات وسياحات خارج إقليم مصر والشام والحجاز بسبب الحروب والفتن.
٤- عدم وجود مواقع عديدة للأدباء في هذا العصر تتنافس في تشجيع الأدباء والكتاب كما كان موجوداً في العصر العباسي الثاني. فقد اقتصرت مواقع وبيئات الأدب على القاهرة ودمشق والمدن المتجاورة في إقليم مصر والشام وكلها تخضع لمؤثرات أدبية واحدة.

ويعزو بعض النقاد والأدباء ذلك الضعف الذي ظهر في الأدب في أواخر العصر المملوكي إلى ضعف المناهج العقلية بل ومحاربتها من قبل بعض الأمراء والقادة) وتلك المناهج تتمثل في الفلسفة والمنطق والجدل وغيرها. ومما أثر عن بعض قادة المماليك أنهم كانوا يبغضون تلك المناهج ويرون أنها للهو والعبث ولا فائدة وراءها. فقد انتقص الفلاسفة في هذا العصر ونظر إليهم نظرة إزدراء بعكس ما كان عليه الحال في العصور السابقة.

والحقيقة أن غياب الفلسفة والمنطق وغيرهما من فنون الجدل ليست سبب قوياً في نهضة الأدب أو ضعف مستواه. ولذا فإنه لا يمكننا أن نعد غياب الفلسفة والمنطق سبباً مباشراً في الضعف الأدبي الذي ساد الحالة الأدبية في أواخر العصر المملوكي.

وإنما تتصل الفلسفة والمنطق والجدل اتصالاً وثيقاً بالأمور الفكرية والعقلية التي يتطلع إليها بعض المفكرين والمؤلفين. أما من الناحية الأدبية فالأمر يختلف إذ لا بد من المقدرة الراسخة والموهبة في إنشاء النصوص ومن ثم الإطلاع على الكتابات النثرية والأدبية السابقة ليكون المخزون الأدبي الذي يتأثر به الكاتب. وهو ما حدث بالفعل في بدايات هذا العصر، وذلك حينما تأثر كثير من الكتاب بكتابات المترسلين السابقين سواء

ممن عُرفوا بالترسل السهل البعيد عن الصنعة الذي يجري على السجية (كعبد الحميد الكاتب – والجاحظ) أو ممن درجوا على الصنعة وتفننوا فيها، وقادهم ذلك احياناً إلى الاغراق في فنون البديع (كابن العميد والقاضي الفاضل والعماد الاصبهاني- ومحي الدين بن عبد الظاهر وشهاب الدين محمود) وغيرهم من أعلام الكتابة. ولذا رأينا أن الكتابة قد اتسمت بالبيان وفنون البلاغة في بدايات العصر.

ومن الإنصاف القول بأن الكتاب في هذا العصر لم يكونوا على حالة واحدة وعلى مستوى واحد من الكتابة وإنما انقسموا إلى قسمين:

١- الكتاب المقلدون: هم الذين تأثروا بكتابات القاضي الفاضل والعماد الأصبهاني وبعض الكتاب السابقين، وذهبوا يقلدونها في كتاباتهم ويسيرون على خطاهم، وإن كان بعضهم قد ضعفت عنده الكتابة حين قلد واغرق في فنون البديع. كما حدث من بعض كتاب مصر والشام. وهؤلاء وإن توفرت لديهم عناصر الفن الكتابي إلا أنه يؤخذ عليهم أحيانا التكلف بسبب الإغراق في البديع.
٢- النقاد المتحررون: ليس من فنون البديع وإنما من الإغراق فيها السائرين على نمط الرسالة ومن هؤلاء (عبد الرحمن بن خلدون والقلقشندي وشهاب الدين النويري) وغيرهم من الكتاب فهؤلاء مذهبهم هو التحرر من قيود الصنعة والسير مع الطبع والتعبير عن النفس ومحاربة التكلف الممقوت في الأداء وهؤلاء هم الذين حفظوا للعربية بعض روائها كما حفظوا للكتابة الفنية شيئاً من بهجتها وازدهارها في هذا العصر.

ولعل من المفيد أن نقف في هذا الجانب عند بعض أعلام الكتابة في العصر المملوكي لنتحدث عن بعض آثارهم الأدبية ومذاهبهم في الكتابة والمكانة الأدبية التي احتلوها في ذلك العصر ومنهم:

١- شهاب الدين محمود.
٢- القلقشندي.

" شهاب الدين محمود "   ٦٤٤-٧٢٥هـ

وهو شهاب الدين محمود بن سلمان بن فهد المكنى بأبي الثناء ولد سنة ٦٤٤هـ في دمشق. وعكف في طفولته على طلب العلم. ثم لقي بعد ذلك مشاهير علماء عصره فأخذ عنهم ثقافته الدينية والأدبية.

فقد أخذ النحو عن ابن مالك النحوي، وتعلم الأدب على مجد الدين بن ظهير وقد لازمه وسلك طريقه وحذا حذوه في الشعر والنثر. كما برع في الفقه ودرس عند كبار الفقهاء في عصره حتى عين قاضيا على الرغم من صغر سنة.

وعرف شهاب الدين محمود بحسن الخلق وكان هادئ الطباع جمّ التواضع كما عرف بالمقدرة والعلم وعين كاتب الانشاء بدمشق في عهد السلطان المنصور قلاوون وأصبح في أئمة الكتاب ورأس البلاغة في عصره.

ويبدو أن شهرته قد اتسعت حين مدح الملك المنصور بعد فتح قلعة المرقب الحصينة التي كانت بيد الصليبيين.

قال ابن تغري بردي: وقد عُمل في ذلك عدة قصائد. ومن ذلك ما قاله شهاب الدين أبو الثناء محمود فقد أنشد قصيدة طويلة أولها:

الله أكبـر هـذا النـصر والظفـر   هذا هو الفتح لا ما تزعم السير

ومما يذكر لشهاب الدين محمود أنه عمد إلى التأليف في فنونه وبسط أنواعه والحديث عن الترسل وأساليبه. وذلك حين ألف كتابا مهماً سماه (حسن التوسل إلى صناعة الترسل) فهو كتاب بديع فريد من نوعه لاختصاصه بفنون النثر وطريقة الترسل. وقد قال في مقدمة كتابة: (جعل الله لي في كتابة الإنشاء طريقاً فباشرت بسببه من الوظائف ما باشرت وعاشرت من أجله من أكابر القوم ما عاشرت).

وقد ارتفعت منزلته حتى أصبح رئيس ديوان الإنشاء عند السلطان الظاهر بيبرس. ثم أعيد ثانية إلى دمشق وولي ديوان الإنشاء وكتابة السر فيها. ويذكر مؤرخو الأدب أن

الشهاب أمضى بين دواوين الإنشاء قرابة خمسين عاماً وهو لا علاقة له بغير تحرير الرسائل وكتابة المنشورات والكتابات الأدبية.

وقد توفي سنة ٧٢٥هـ في مدينة دمشق.

آثاره الأدبية:

أشار الأقدمون إلى أنه كان شيخ صناعة الإنشاء في عصره. وإن نثره كثير جداً يبلغ أضعاف نظمه. وذكروا أنه له تصانيف تملأ الأذهان فهماً وتسع فنون الأدب علماً. ومن أشهر تصانيفه (حسن التوسل إلى صناعة الترسل).

أما الموضوعات التي طرحها في هذا الكتاب فقد تحدث عن أساليب الكتابة والطرق التي ينبغي أن يتعلمها من يترشح لهذه الصناعة ومن ذلك الاطلاع على العلوم المختلفة كعلوم اللغة والبلاغة والإجادة في علوم المعاني والبديع. وختم كتابه بالحديث عن خصائص الكتابة كالاقتباس والاستشهاد وحل المنظوم. وذيّل كتابه بمجموعة قيمة من رسائله التي أنشأها في ديوان الإنشاء في مختلف الموضوعات.

الموضوعات النثرية عند شهاب الدين محمود:

وقد كتب شهاب الدين محمود في عدة فنون نثرية أهمها:

١- رسائل الحروب والفتوح والتهاني: أشار الشهاب إلى الرسائل التي ينشئها في أوقات الحرب إلى الأمراء والولاة ومقّدم الجيوش والسرايا وما تتضمنه تلك الرسائل من الحث على الجهاد والتصدي للعدو. وما تتميز به من تقوية العزائم وتشجيع الجيوش وتهيئتهم للنصر. ومن ذلك تلك الرسالة التي كتبها إلى الجيوش المرابطة من أجل لقاء العدو يقول: (أصدرناها ومناد النفير قد أعلن يا خيل الله اركبي ويا ملائكة الرحمن اصبحي ويا وفود التأييد والظفر اضربي. والعزائم قد ركضت على سوابغ، والهمم قد نهضت إلى عدو الإسلام فلو كان في مطلع الشمس لاستقربت ما بينها وبينه...).

ومن أمثلة كتب التهانئ والفتوح تلك الرسالة التي كتبها شهاب الدين إلى ابن الأحمر صاحب غرناطة في الأندلس يقول فيها: (أما بعد حمد الله فإنا أصدرناها ونعم الله بنا مطيفة ومواقع نصره عندنا لطيفة ونهدي بعلمه الكريم ورود كتابه الجليل مسفراً عن لوامع صفائه، مبيناً جوامع وده ووفائه مشرقاً بلآلى فرائده، محدقاً بروض كرمه الذي سعد بما بلغه من أنباء النصرة، التي سارت بها الركبان وذلت بعز ما تلي عليه منها عباد الصلبان، وطبق ذكرها المشارق والمغارب، ومزقت أعداء الله التتار، وهم في رأي العين أعداد الكواكب، وخلطت التربة بدمائهم حتى لم يُبح بها التيمم. فإن التتار المخذولين أقبلوا كالرمال واصطفوا كالجبال وتدفقوا كالبحر الزاخر، وتوالوا كالأمواج التي لا يعرف لها الأول من الآخر، فصدمتهم جيوشنا المنصورة صدمة بددت شملهم وعلمت الطير أكلهم...).

ونلحظ في هذا اللون من الرسائل أن الكاتب يميل إلى بسط الكلام والأطناب في الوصف والزيادة في الشرح. ليبين أثر الانتصار وما صحبه من جهود هيأت له وساعدت في سبيل نصرة الإسلام وهو الجانب الذي ركز عليه كثير من الكتاب في ذلك العصر.

٢- الرسائل الإخوانية: انتشرت الرسائل الإخوانية في هذا العصر. وقد عدها الشهاب من الكتب التي يكون الكاتب فيها مطلق العنان، مخلىً بينه وبين قوته أو ضعفه. ويلاحظ في رسائله الإخوانية انها كانت تدور حول موضوعات الصداقة والأخوّة وما إلى ذلك من موضوعات التهاني والتعازي والشوق والاستعطاف والشفاعة ونحو ذلك.

ومن رسائله تلك ما كتبه في رسالة انشأها لما بلغهُ أن أحد نواب السلطان جاءه ولد وهو مسافر إلى الصعيد فكتب رسالة على لسان المولود إلى والده يقول فيها: (اقبل الأرض ابتداءً بالخدمة من حيث ظهر إلى الوجود وشوقاً إلى امتطاء صهوات الجياد بين يدي سيده قبل المهود وتمنيا أن يكون أول شيء يقع عليه نظره في الدنيا وجه مولانا الذي تعلو بنظره الجدود ويتيمن برؤية كواكب السعود. وينهى أنه تعجل الشوق على صغره وكان كمال المسرة أن يقع نظر مولانا الشريف عليه قبل البشرى بخبره ويكتسي قبل أن توقع عليه الملابس من إشراق محياه الكريم حلل نوره ويكون أول ما يلج مسامعه صوت مولانا يحمد ربه على الزيادة في خدمه وتكثير من يضرب بين

يديه في الحرب بسيفه. ويقف في السلم أمامه على قدمه. فإن من يكون نجل مولانا تنطق بالنجابة مخايله. وتدل على الشجاعة سماته قبل أن تدل عليه شمائله. والهلال سيصير في أفقه بدراً منيراً. والشبل سيعود كأبيه أسداً هصورا. والله تعالى يهب العبد عمراً ويبلغ من طاعة مولانا ما يجب عليه ويرزقه عملا صالحاً يتقرب به إلى ربه. وإليه بمنه وكرمه).

ويلاحظ على هذه الرسالة أنها لم تكن رسمية فالكاتب يتخاطب فيها بلغة المحبة والطاعة. وهي من الرسائل التي يوجهها الكتاب إلى أمرائهم وقادتهم. وعادة ما تحفل بالجوانب الرسمية التي تكون بين الكاتب وأميره. فالكاتب يظل مقيداً غير مطلق العنان فيما يدبجه من كتابات وذلك على عكس الرسائل الإخوانية التي تدور بين الأخوة والأصدقاء وتعبر عما في وجدانهم من المشاعر الصادقة مع ما يدخل في ذلك من الملاطفات في التعبير والعبارات التي تدل على الأريحية والمودة بين الطرفين.

"القلقشندي" ٧٥٦-٨٢١هـ

هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي بن عبد الله الفزاري القلقشندي الشافعي.

والقلقشندي نسبة إلى قلقشنده وهي بفتح القاف وسكون اللام مدينة بمصر تقع إلى الجنوب بمحافظة القليوبية بينها وبين القاهرة مسافة كيلو مترات.

ومن مراحل هذا الكاتب الذي ولد في إقليم القليوبية سنة ٧٥٦هـ. ونشأ فيها وقضى بها أيام طفولته وصباه. حيث يذكر المؤرخون أنها أهم المراحل التي تميزت بها حياة القلقشندي فقد كانت المرحلة الأولى التي عاشها في مدينته وتلقى بها العلوم وتعلم أساليب الكتابة.

أما المرحلة الثانية فهي التي انتقل فيها من بلدته إلى الإسكندرية سنة ٧٧١هـ حيث شعر ان بقاءه في تلك المدينة الصغيرة لن يحقق له طموحه ورغبته في الاستزادة من العلم فقرر الارتحال عنها لطلب العلم. وفي الإسكندرية أخذ عن مشاهير العلماء (كابن الملقن سراج الدين أبي حفص عمر بن أبي حسن الذي أجازه سنة ٧٧٨هـ وكان في الحادية والعشرين من عمره. ومنح له تلك الإجازة وهي التدريس على مذهب الإمام الشافعي. ثم أجازة إجازة ثانية وهي إجازة تقضي بأن يروي عن أستاذه.

أما المرحلة الثالثة فكانت مرحلة الاستقرار في حياة القلقشندي فقد عكف على التصنيف في الفقه فألف كتابه الذي شرح فيه جامع المختصرات في فروع الشافعية لكمال الدين بن عمر. كما ألف كتاب الحاوي الصغير في الفروع. إضافة لشرح قصيدة كعب بن زهير وهي اللامية المشهورة حيث أسمى مؤلفه: (كنه المراد في شرح بانت سعاد).

أما المرحلة الرابعة فهي المرحلة التي عرف فيها القلقشندي وذلك من خلال تدريسه في حلقات العلم وفي مجال التأليف والتصنيف ولأجل ذلك اختير في سنة ٧٩١هـ ليكون منشئا في ديوان الإنشاء بمصر. وفي تلك الأثناء ألف مقامة أسماها (الكواكب الدرية) قد اشتملت على التعريف بفنون الإنشاء وبيان أهميتها ولكن الكاتب وجد بعد ذلك ان هذه المقامة مجملة فأراد أن يفصل كل ما ورد فيها. وأن يذكر كل ما يتصل بديوان

الإنشاء وما يجب أن يتصف به الكاتب وأن يتقنه في صناعة الإنشاء. ولذلك وضع كتابه المشهور (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) وذلك ليكون شرحاً لمقامته السابقة.

وقد بقي فترة طويلة في ديوان الإنشاء حتى توفي سنة ٨٢١هـ.

أما آثاره الأدبية فمنها ما يتصل ببعض الدراسات الأدبية في الشعر ومنها ما يتصل بالكتابة الفنية والرسائل الأدبية التي كتبها في ديوان الإنشاء.

ومن أهم الفنون النثرية التي كتبها القلقشندي ما يأتي: (التقاليد - التوقيعات - المراسيم - العهود - السجلات - المنشورات - المهادنات - المقامات - الرسائل الإخوانية - الوصايا).

وهذه الأنواع كتبها وهو في ديوان الإنشاء بمصر وبدون ذكر لأنواع تلك الرسائل وبخاصة أن بعضها يتفرع لفنون عديدة كالرسائل الإخوانية والرسائل الحربية. فقد أفاد القلقشندي من تلك الفنون خلال عمله بديوان الإنشاء وما قرره وقعده بعد ذلك في مؤلفه صبح الأعشى.

وللقلقشندي ميول إلى كتابة الرسائل التي تعنى بالمفاخرة ومن ذلك رسالته المشهورة في المفاخرة بين العلوم التي تحدث فيها عن نيف وسبعين علماً بدأها بعلم اللغة وختمها بعلم التاريخ. وتحدث فيها عن ميزة كل علم وأهميته والجوانب التي يستفيد منها طالب العلم وخلص في الأخير إلى أن تلك العلوم يستفيد بعضها من بعض ويحتاجها الدارس كل في المجال الذي تخصص فيه.

كما كتب رسالة في المناظرة بين السيف والقلم وبين أهمية كل واحد منهما ومكانته في كل حال.

أما في جانب التأليف فقد صنف القلقشندي كتباً: في فنون مختلفة منها:

١- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب.

٢- حلية الفضل وزينة الكرم في المفاخرة بين السيف والقلم.

٣- كنه المراد في شرح بانت سعاد.

٤- الكواكب الدرية في المناقب البدرية.

٥- صبح الأعشى في صناعة الإنشا.

٦- الغيوث الهوامع في شرح المختصرات ومختصرات الجوامع.

٧- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان.

"الحياة الأدبية فى العصر العثمانى"

دب الهرم في جسد الدولة المملوكية وأصابها الضعف الذي يتقدم فناء الدول. فزالت هيبة الدولة واستهان الجنود بالحكام وتفرقوا شيعاً. فساء الحال بالداخل وأصبح الأمر ينذر بالسقوط.

أما في الخارج فقد ساءت العلاقات السياسية بين السلطان (قانصوه الغوري المملوكي وسليم الأول العثماني). وبدأت جيوش سليم الأول في غزو الشام التي هي جزء من دولة المماليك. ثم دارت الحرب حول (مرج دابق) شمالي حلب سنة ٩٢٢هـ. حيث هزم الجيش المصري بسبب خيانة بعض قواد المماليك وقتل الغوري، ودخلت بلاد الشام كلها في حكم الأتراك العثمانيين.

وتولى طومان باي حكم مصر واستعد لرد الغزو والعثماني إلا أنه لم يستطع المقاومة ودخل جيش سليم الأول القاهرة وقبض على طومان باي وقتله في ١٩- ربيع الأول ٩٢٣هـ.

وبذلك أصبحت مصر والشام ولاية عثمانية، وتحت تأثير القوة تنازل الخليفة العباسي الثامن عشر في مصر وهو محمد المتوكل على الله عن الخلافة إلى سليم وبذلك انتقلت الخلافة إلى تركيا.

وورث العثمانيون ملك مصر والشام والحجاز واليمن والمغرب العربي حتى تمكنوا من ضم العالم العربي كله إلى حكمهم. وخّضع العرب في سلطانهم بعد أن نزع منهم لواء الزعامة في العالم الإسلامي. وكان من آثار ذلك أن انتقلت عاصمة الخلافة من القاهرة إلى استانبول لتنتقل بذلك زعامة العالم الإسلامي إلى هناك.

أما الأثر الثقافي من سقوط دولة المماليك وقيام الدولة العثمانية هو إنهيار صرح الثقافة العربية في كثير من البلاد العربية. وأصاب النهضة الثقافية الجمود. وضعف الاهتمام بالتعليم. وجُردت مصر وغيرها من البلاد العربية من كنوز الثقافة ومن الآثار والكتب

والمخطوطات التي انتقلت إلى عاصمة الخلافة العثمانية كما أرسل كثير من العلماء والمفكرين ورجال الفنون والصناع المهرة إلى تركيا للعيش فيها وللأفادة من علومهم وأفكارهم.

وقد ضعفت الحياة الأدبية في العصر العثماني بشكل واضح ويمكن أن نعزي ذلك الضعف إلى خمسة أسباب:

أولاً: عدم تشجيع السلاطين العثمانيين للأدب فلم تعد أبوابهم مفتوحة للأدباء. ولم يكونوا يأبهوا بالشعر لأنهم أتراك لا يتذوقونه ولا يعرفون معانيه.

ثانياً: انصراف الأدباء عن النظم والكتابة. وانصرفوا عنها إلى أعمال أخرى يرتزقون منها، فكان منهم الوراق والكحال والدهان والبزار وغير ذلك.

ثالثاً: شاعت طريقة التقليد بين الأدباء فأضعفت الأدب وأذاعت الصناعة اللفظية فيه وجعلته ألفاظاً بلا معنى وجسداً لا روح فيه.

رابعاً: ضعف الثقافة وركود القرائح والأذهان. إذ لم يعد هدف الشعراء أن يبتكروا شيئاً أو يقدموا جديداً في أدبهم بل ظلوا عالة على ما تقدمهم من شعر ونثر.

خامساً: في جانب الكتابة الفنية فقد أصيبت بأعظم أثر لم تصب له منذ قامت في عهد الأمويين والعباسيين وذلك من خلال ديوان الإنشاء فقد أغلق العثمانيون هذا الديوان وخلت البلاد العربية من كتاب بارزين يكتبون باللغة العربية فقد تحول الأمر إلى اللغة التركية التي أعتمدت لغة رسمية لدى العثمانيين وشاعت الألفاظ التركية لدى كثير من العرب وبخاصة اولئك الذين رحلوا إلى عاصمة الخلافة العثمانية استانبول.

وهذه الأسباب في مجملها كانت من أهم العوامل التي أدت إلى جمود الحركة الأدبية وضعفها في عهد العثمانيين.

"الكتابة الفنية فى العصر العثمانى"

كانت الكتابة الفنية في عصر المماليك موشاة بحلي اللفظ ومحسنات البديع، مثقلة أحياناً ببعض الزخارف التي أغرق فيها الكتاب كل ذلك مع ازدهار اللغة ووجود الحس الأدبي وتشجيع المماليك للأدباء وقيام ديوان الإنشاء بدور واضح في خدمة الحركة الأدبية. فلما جاء العصر العثماني لم يكن للأديب من يسمعه. ولا للغة العربية من يعطف عليها فأغلق ديوان الإنشاء. وسادت التركية والعامية، وذهب رونق الكتابة الأدبية. فدب الضعف والوهن بل وجاءت قيود فنية أكسبتها سقماً وضعفاً فأصبحت مجرد ألفاظ لا يكاد يفهم منها شيء. ولا تتبين منها فكرة. ولا يهتدى بها إلى غاية. وجنى إهمال الملكات والجهل بأصول الكتابة على أسلوبها الذي صار مزيجاً من العامية والفصحى. بل لقد استعمل بعض الكتاب الألفاظ التركية تظرفاً وتأثراً باللغة الحاكمية وعجز الكاتب عن أن ينشيء أدباً نافعاً مؤثراً في النفس فيه حضور لعواطف الكاتب.

وكان لون الرسائل الشائع بين الكتاب هو لون الرسائل الإخوانية من شوق وتهنئة وعتاب واعتذار وشكوى ومديح وغير ذلك.

وقد تأثر أسلوب الكتابة بالركاكة والحرص على المبالغة في البديع هذا بالنسبة للرسائل بين الأخوة والأصدقاء.

أما بالنسبة للرسائل الرسمية التي توجه إلى الولاة والناس فقد أصبحت تكتب باللغة التركية. ولم تجد الكتابة الفنية ذلك الاهتمام في هذا العصر. فانصرف الكتاب عن الكتابة ولم يعد الحال كما كان في عصر المماليك.

ويمكن أن نلخص أسباب ضعف الكتابة الفنية في ذلك العصر فيما يأتي:

أولاً: عدم تشجيع الولاة من الأتراك للكتاب والأدباء لجهلهم بالأدب وبالعربية.

ثانياً: انصراف الكتاب عن الكتابة.

ثالثاً: ضعف الثقافة وركود القرائح والمواهب.

رابعاً: اهتمام الكتاب بالمحسنات البديعية اللفظية وميلهم إليها على حساب المعاني.

خامساً: إغلاق ديوان الإنشاء.

سادساً: إصدار الرسائل الرسمية باللغة التركية.

ولعل من أشهر الكتاب في العصر العثماني هم الشيخ (حسن العطار- والشهاب الخفاجي - وعبد الوهاب الحلبي) وغيرهم من الكتاب.

والحقيقة أن من يرجع إلى الرسائل التي كتبت في ذلك العصر يجد أن فن الرسالة لم يعد مجالاً خصباً في فنون النثر الأدبي ولم تتوفر له من عناصر الإتقان والإبداع الأدبي والمهارة في الأداء ما توفرت له في العصور الأدبية السابقة.

انتهى المنهج بحمد الله وفضله

النصوص الأدبية

قال رشيد الدين النابلسي:

هذا الذي كانت الآمال تنتظر		فليوف لله أقوام بما نذروا
هذا الفتوح الذي جاء الزمان به		إليك من هفوات الدهر يعتذر
يجل علياه عن مدح يحيط به		وصف وإن نظم المداح أو نثروا
يوم تعالى محلا واستنار سناً		فدون مرتبتيه الأنجم الزهر
يوم به التأم الكفار في عدد		جم ولكن لكسر ليس ينجبر
جاءوا كما أقبل الطود الأشم له		من حيث ما سرت فيه مسلك وعر
وجئتهم مثل ما انقض القضاء فلا		والله لم يغنهم بأس ولا وزر
بنفس حان على الإسلام محتمل		الآلام لم يثنه خوف ولا حذر
لقد فتحت عصياً من ثغورهم		لولاك ما هد من أركانها حجر
تركت أرضهم من طول ما عمرت		منهم بلاقع لا أنثى ولا ذكر
بمثل هذا الفتح لا والله ما حكيت		في سالف الدهر أخبار ولا سير
الآن قرت جنوب في مضاجعها		ونام من لم يزل حلفاً له السهر
يا بهجة القدس إذا أضحى به علم		الإيمان من بعد طي وهو منتشر
يا نور مسجده الأقصى وقد رفعت		بعد الصليب به الآيات والسور
شتان ما بين ناقوس يدان به		وبين ذي منطق يصغى له الحجر
الله أكبر صوت تقشعر له		شم الذرى وتكاد الأرض تنفطر

التعريف بالشاعر:

رشيد الدين النابلسي: هو أبو محمد عبد الرحمن بن بدر بن الحسن بن المفرج بن بكار المعروف الرشيد النابلسي. ولد بدمشق ونشأ بها وأخذ عن بعض علماء عصره ومنهم تاج الدين الكندي اتصل بالملوك الأيوبيين ومدحهم ونال عندهم الحضوه. ونظم في أكثر الأعراض الشعرية ومنها الحماسة والحروب الصليبية وقد توفي بدمشق سنة ٦١٩هـ.

مناسبة النص:

قيلت هذه القصيدة في فتح بيت المقدس الذي تحقق للمسلمين سنة ٥٨٩هـ وقد وصف الشاعر في قصيدته موقعة (حطين) وانتصار المسلمين فيها وهزيمة الصليبيين وأنكسار شوكتهم وما حققه صلاح الدين الأيوبي من نصر عظيم للمسلمين حرر على إثره بيت المقدس وأعاده إلى المسلمين.

قال صفي الدين الحلي يمدح الملك الصالح شمس الدين أبا المكارم ويحرضه على التصدي للمغول وقتالهم.

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا		ولا ينال العلا من قدم الحذرا
ومن أراد العلا عفواً بلا تعبٍ		قضى، ولم يقض من إدراكها وطرا
لا بد للشهد من نحل يمنعه		لا يجتني النفع من لم يحمل الضررا
لا يبلغ السؤل إلا بعد مؤلمة		ولا تتم المنى إلا لمن صبرا
وأحزم الناس من لو مات من ظمأً		لا يقرب الورد حتى يعرف الصدرا
وأعزر الناس عقلاً من إذا نظرت		عيناه أمراً غدا بالغير معتبرا
فقد يقال عثار الرجل إن عثرت		ولا يقال عثاراً الرأي إن عثرا
لا يحسن الحلم إلا في مواطنه		ولا يليق الوفا إلا لمن شكرا
ولا ينال العلا إلا فتى شرفت		خلاله، فأطاع الدهر ما أمرا
كالصالح الملك المرهوب سطوته		فلو توعد قلب الدهر لانفطرا
لما رأى الشر قد أبدى نواجذه		والغدر عن نابه للحرب قد كشرا
رأى القسي إناثاً في حقيقتها		فعافها، واستشار الصارم الذكرا
فجرد العزم من قتل الصفاح لها		ملكٌ عن البيض يستغني بما شهرا

ترجمة الشاعر:

صفي الدين الحلي هو عبد العزيز بن سرايا بن علي الحلي نسبة إلى الحلة موطنه الذي عاش فيه وهي بلدة بين الكوفة وبغداد حيث ولد بها سنة ٦٧٧هـ وعمل في التجارة ورحل من أجلها إلى الشام ومصر وماردين وغيرها من البلاد. ترك العراق بعد الحروب والفتن وقعت بين قومه وبين خصوم لهم شارك فيها وفخر فيها في شعره بنفسه وقومه.

وقد ساقت الأحداث الشاعر إلى أن يتصل بملوك الدولة الأرتقية فمدح منهم الملك منصور الأرتقي وولده الولد الصالح نجم الدين بما عرف من قصائد المنصوريات وتشمل ثمان قصائد والصالحيات وهي خمسة عشر قصيدة وفي طريقه إلى الديار المقدسة مر بالقاهرة ومدح فيها السلطان الناصر (قلوون) الذي كان على عرش المماليك البحرية في مصر بقصائد ثلاث عرفت بالناصريات ثم عاد إلى "ماردين" في بغداد حيث توفي بها سنة ٧٥٠هـ.

وقد نظم صفي الدين الشعر يافعاً وأتقن أساليبه وتراكيبه بكثرة ما وقف عليه من شعر المتقدمين وما ملك من زمام اللغة فبرز بين شعراء عصره وتفوق عليهم، قال عنه ابن شاكر الكتبي: (هو العلامة البليغ المفوه الناظم الناثر شاعر عصرنا على الإطلاق أجاد القصائد المطولة والمقاطع تطربك ألفاظه المصقوله ومعانيه المعسولة ومقاصده التي كأنها سهام راشقة وسيوف مسلولة.

الغرض الشعري لهذا النص:

يشتمل على غرضين أحدهما ما اتسم به مطلع القصيدة من الحكم المتوالية التي أتى بها الشاعر ووظفها لخدمة النص، فقد أورد مجموعة من الحكم في الأبيات الأولى (١-٩) ثم عبر من خلال هذه الحكم عن صفات المجد والوصول إلى العلياء وإلى تحقيق الأهداف وأن كل ذلك لا بد له من عقبات ومخاطر لابد أن يتجاوزها الإنسان حتى يحقق هدفه الرئيس وبدون ذلك لن يبلغ سؤاله ولن يحقق مطلبه لأنه لم يبذل جهداً في سبيل ذلك ونجد الشاعر ينتقل مباشرةً إلى غرضه الثاني في هذه القصيدة وهو المديح للملك الصالح بواسطة التشبيه وذلك من خلال قوله:

كالصالح الملك المرهوب سطوته | فلو توعد قلب الدهر لانفطرا

فقد انتقل مباشرةً إلى ما يريده من هذه القصيدة وهو مدح الملك الصالح ونلاحظ هنا الجدة والتجديد في مطلع القصيدة العربية فالشاعر بدأ قصيدته بالحديث عن الحكمة وهذا أمر يعتبر جديدا في الشعر.

أبيات من لامية عمر بن الوردي (ت ٧٤٩هـ)

اعتـــزل ذكـــر الأغـــاني والغـــزل		وقل الفصل وجانب من هـزل
ودع الـــذكرى لأيـــام الـــصبا،		فلأيـــام الـــصبا نجـــم أفـــل
واهجـر الخمـرة إن كنـت فـتى		كيف يسعى في جنـون مـن عقـل
واتـــق الله، فتقـــوى الله مـــا		جاورت قلـب امـريءٍ إلا وصـل
لـيس مـن يقطـع طرقـاً بطـلاً،		إنمـا مـن يتقـي الله البطـل
اطلـب العلـم ولا تكـسل، فمـا		أبعد الخـير علـى أهـل الكـسل
لا تقـل: قـد ذهبـت أربابـه		كل من سار على الـدرب وصـل!
في ازديـاد العلـم إرغـام العـدا،		وجمـال العلـم إصـلاح العمـل
ملك كسرى عنـه تغـني كـسرة،		وعـن البحـر اجتـزاء بالوشـل
لا تقـل: أصـلي وفـصلي! أبـداً،		إنما أصل الفـتى مـا قـد حـصل
قيمـة الإنـسان مـا يحـسنه		أكثـر الإنـسان منـه أم أقـل!
ليس يخلـو المـرء مـن ضـد وإن		حـاول العزلـة في رأس جبـل
حبـك الأوطـان عجـز ظـاهر،		فاغترب تلـق عـن الأهـل بـدل

قال شرف الدين الأنصاري يمدح الملك المنصور قائد حماة بعد انتصار المسلمين في موقعة عين جالوت.

لما شكا دين الهدى أشكيته		بشديد بأسك والسلاح الشاكي
دعت المعالي يا أباها دعوة		لزمت عليك فقلتها لباك
جردت يوم الأربعاء عزيمة		خفيت عواقبها عن الإدراك
وأقمت في يوم الخميس مبالغا		في الجمع بين طوائف الأتراك
ووقفت في يوم العروبة موقفا		أوسعت فيه الفتك بالفتاك
قيدت أبطال التتار بصولة		تركتهم كالصيد في الأشراك
بردت أكباد الورى بقواضب		قذفت عليهم كالضرام الذاكي
أضحكت سن ثغورنا من بعدما		ظفروا بها فبكى عليها الباكي
فلقد أنمت المحصنات أوامنا		ولقد أقمت شعائر النساك
سلمت مهجة كل بر مسلم		وهزمت كل معاند أفاك

التعريف بالقائل: (شرف الدين الأنصاري)

هو عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الملقب بشرف الدين الأنصاري الأوسي، ولد بدمشق سنة ٥٨٦هـ وانتقل إلى حماة وتعلم بها وأجاد في عدة علوم، وعرف بشيخ الشيوخ وكان بارعاً في نظم الشعر توفي سنة ٦٦٢هـ وله ديوان شعري مطبوع.

الأفكار العامة في النص:

١- دوافع أسباب النصر في البيت الأول والثاني.
٢- من البيت ٣ – ٨ وصف الانتصار الإسلامي من بداية المعركة إلى إيقاع الهزيمة بالأعداء.
٣- من البيت ٩ – ١٠ الحديث عن آثار الانتصار الإسلامي على التتار.

قال تقي الدين التنوخي في حادثة سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ

لسائل الدمع عـن بغـداد إخبـار		فما وقوفك والأحباب قـد سـاروا
يا زائـرين إلى الـزوراء لا تفـدوا		فما بـذاك الحمـى والـدار ديـار
تاج الخلافة والربع الـذي شـرفت		بـه المعـالم قـد عفـاه إقفـار
أضحى لعطف البلى في ربعـه أثـر		وللـدموع علـى الآثـار آثـار
علا الصليب علـى أعلـى منابرهـا		وقـام بـالأمر مـن يحويـه زنـار
وكم حريم سبته التـرك غاصـبة		وكان من دون ذلك الـستر أسـتار
وكم بدور على البدريـة انخسفت		ولم يعـد لبـدور منـه إبـدار
وكم ذخائر أضحت وهـي شـائعة		من النـهاب وقـد حازتـه كفـار
وكم حدود أقيمت مـن سـيوفهم		على الرقـاب وحطـت فيـه أوزار
ناديـت والـسبي مهتـوك يجرهم		إلى الـسفاح مـن الأعـداء دعـار
وهم يساقون للموت الذي شـهدوا		الموت يا رب مـن هـذا ولا العـار
والله يعلـم أن القـوم أغفلـهم		ما كان مـن نعـم فـيهن إكثـار
فأهملوا جانـب الجبـار إذا غفلـوا		فجاءهم من جنـود الكفـر جبـار
يـا للرجـال لأحـداث تحـدثنا		بمـا غـدا فيـه إعـذار وإنـذار

الشهاب الخفاجي

(٩٧٧ ــ ١٠٦٩هــ/١٥٦٩ــ ١٦٥٨م)

شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، قاض، أديب، لغوي. ولد في «سرياقوس» وهي قرية في نواحي القاهرة، لأب من كبار علماء عصره.

نشأ الشهاب في حجر أبيه ورعايته، يعلمه ويؤدبه، فتلقن منه علومه الأولى، وعليه تخرج في الإنشاء والكتابة. ولما استوى يافعاً درس النحو وعلوم العربية على خاله أبي بكر بن إسماعيل الشنواني، ثم درس المعاني والمنطق وبقية علوم الأدب، كما نظر في علوم المذهبين، مذهب أبي حنيفة والشافعي. ولاشك أن رحلته في مطلع حياته مع والده إلى الحرمين أفادته، إذ تلقى العلم عن شيوخ مكة، وحفظ لنا شيئاً من الأشعار التي سمعها هناك.

وقد تتلمذ الشهاب لجملة من أساتذة عصره، أشهرهم شمس الدين الرملي، فقيه الديار المصرية آنذاك، قرأ عليه شيئاً من صحيح مسلم، وأجازه بذلك وبجميع مؤلفاته ومروياته بروايته عن شيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري. ومنهم نور الدين علي بن يحيى الزيادي الذي انتهت إليه رئاسة الشافعية في مصر، وقد حضر الشهاب دروسه، ومنهم علي بن غانم المقدسي الخزرجي رأس الحنفية في عصره، قرأ عليه الحديث، وكتب له إجازة بخطه، وجمال الدين إبراهيم العلقمي، قرأ عليه «الشفاء»، وأحمد العلقمي الذي أخذ عنه الأدب والشعر، ومحمد المغربي المعروف بـ ركروك، أخذ عنه علمي العروض والقوافي، وداود الأنطاكي الذي أخذ عنه الطب، وعلي ابن جار الله المعروف بـ العصام الأسفراييني، أخذ عنه في أثناء رحلته مع والده إلى الحرمين الشريفين، وابن عبد الغني الذي أخذ عنه في أثناء رحلته إلى القسطنطينية.

أما تلامذته فأشهرهم عبد القادر ابن عمر البغدادي صاحب «خزانة الأدب» (ت ١٠٩٣هــ) الذي قرأ عليه كثيراً من كتب التفسير والحديث والأدب، وأجازه بذلك وبمؤلفاته، ولما مات الشهاب تملك البغدادي أكثر كتبه. وفضل الله بن محب الله بن محمد المحبي (ت ١٠٨٢هــ) الذي كتب عنه أصل الريحانة، وسماه «خبايا الزوايا فيما في الرجال من البقايا». وأحمد بن يحيى بن عمر الحموي المعروف بـ العسكري الشافعي، وهو فقيه الشافعية بحماة (ت ١٠٩٤هــ).

وتذكر المصادر أن الشهاب ارتحل إلى بلاد الروم (تركيا)، وأنه اتصل بالسلطان العثماني مراد، فولاه قضاء سلانيك ثم قضاء مصر، لكنه عزل عن هذا المنصب، فارتحل ثانية إلى الروم ماراً بدمشق فأقام بها أياماً لقي فيها ضرباً من الاحتفاء إذ أكرمه أهلها وعلماؤها

وامتدحوه، ثم دخل حلب، وكان مفتيها آنذاك يحيى بن زكريا الرومي، والظاهر أن جفوة حدثت بين الرجلين كانت سبباً في نفيه وإعادته إلى مصر حيث أعطي قضاء يتعيش به إلى أن مات.

وقد خلف الشهاب كتباً كثيرة ذكر طائفة منها في الباب الذي عقده لذكر مؤلفاته من الريحانة واستوفى بقيتها من ترجم له، والذي انتهى إلينا من مصنفاته هو: «ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا» وهو كتاب قيم قصد فيه مؤلفه أن يكون جامعاً لتراجم أدباء عصره، فذكر منهم نحو مئة وثلاثين، وجلهم شعراء من مصر والحجاز واليمن وبلاد الروم، ولم ينس أن يصنع ترجمة مطولة لنفسه.

وقد جرى الشهاب في تراجمه تلك على ذكر توطئة للمترجم له، يغلب عليها الصنعة البديعية،ثم يورد أمثلة من نظم الأديب ونثره إن كان ناثراً، وهو لا يفتأ يعقب على كل ما يورده منتقداً ومستطرداً إلى ذكر أدبه نفسه، حتى قارب كتابه أن يكون من أدب مؤلفه وصلته بأدباء عصره.

وله أيضاً «شرح درّة الغواص في أوهام الخواص للحريري» صنفه للسلطان العثماني مراد، وهو شرح لغوي لكتاب «درة الغواص» للحريري، الذي تناول فيه الأخطاء التي يقع فيها الخواص من أهل اللغة.

وله «شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل» وهو كتاب لغوي مهم جمع فيه ما ذكره العلماء قبله في باب المعرب وزاد عليهم، وأهم ما فيه مقدمته التي تحدث فيها عن التعريب وشروطه، وقد رتبت فيه الألفاظ المعربة على حروف الهجاء. و«طراز المجالس» رتبه على خمسين مجلساً، ذكر فيها مباحث في التفسير والنحو والأصول وغيرهما. و«عناية القاضي وكفاية الراضي» وهو حاشية على تفسير البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، و«نسيم الرياض في شرح الشفا للقاضي عياض»، شرح فيه كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤هـ).

وللشهاب مصنفات أخرى ما بين مخطوط ومفقود، أما شعره الذي جمعه في ديوان فهو شعر العلماء، وقد ذكرت كتب التراجم أن له مقصورة عارض بها مقصورة ابن دريد، وقصيدة عارض بها معلقة زهير جعلها في مدح الرسولﷺ.

قبل الحديث عن المؤثرات وملامح الضعف الذي قال به كثيرهم النقاد والباحثين نذكر أن الحكم على هذا العصر بالضعف والانحطاط ينبغي ألا يكون حكماً عاماً.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن شعر هذا العصر يميل إلى الصناعة اللفظية والعناية بالبديع والجناس والطباق وغير ذلك من المحسنات اللفظية والمعنوية.

وهذه العناية بالمحسنات أدت إلى ضعف الإبداع، فجفّت الينابيع العبقرية وكسدت بضاعة الشعراء ولم تعد لهم المكانة السامية التي كانت في العصور الذهبية السابقة.

وكان الخلفاء والأمراء قد شغلوا بالمعارك والحروب الصليبية فلم يكن تشجيعهم كافياً لإبداع الشعراء، وكان بعض الشعراء يعاني من الفقر مما حدا ببعضهم إلى الاشتغال بالحرف لكسب العيش، فوجدنا منهم الجزار والخياط والنجار والدهان والوراق.

– من أهم خصائص الشعر في هذا العصر:

١- العناية بالمحسنات البديعية لفظية ومعنوية، مما جعل القصيدة عبارة عن مقطوعة مزخرفة لم يُهتم فيها في المعنى قدر الاهتمام بالزخرفة.

٢- استعمال الشعر في الألغاز والأحاجي والمُعمَّيات.

٣- انتشار الألفاظ العامية والأوزان الشعبية.

٤- ضعف الابتكار وكثرة السرقات الشعرية.

٥- العناية بالمعارضات الشعرية.

٦- شيوع المقطوعات القصيرة.

٧- كثرة شعر الفكاهة والمجون.

٨- الإكثار من نظم العلوم

النثر في العصر المملوكي

من محاسن هذا العصر ازدهار حركة التأليف فيه، وكان لذلك فضل كبير في حفظ الثقافة الإسلامية من الضياع بعد النكبات التي تعرضت لها إثر سقوط بغداد وما مر بالعالم الإسلامي من أحداث دامية

وقد أرجع مؤرخوا الأدب كثرة المؤلفات والموسوعات في هذا العصر إلى أسباب منها:

١- كثرة المدارس والمعاهد وخزائن الكتب.

٢- الغيرة الدينية على التراث الإسلامي ومحاولة التعويض عما أُحرق في بغداد وما أُلقي في النهر. فكان شعورهم بأن ثقافة المسلمين في خطر ومهددة بالضياع مما حدا بهم إلى الانكباب على التأليف.

٣- تكريم السلاطين والأمراء للعلماء وميلهم القوي إلى اقتناء الكتب وحيازتها.

٤- التنافس الشديد بين العلماء على التأليف.

وقد نتج عن هذه الحركة العلمية مؤلفات كثيرة جداً في مختلف العلوم الإسلامية والعربية، وقد حفظت لنا تلك المؤلفات التراث الإسلامي الذي كادت الأحداث أن تعصف به.

ويلاحظ على مؤلفي هذا العصر الميل إلى الجمع وعدم الاهتمام بالإبداع.

* ومن أبرز الكتب المؤلفة في هذا العصر:

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور.
- والإتقان في علوم القرآن.
- ولباب النقول في أسباب النزول.

وكلها للسيوطي.

- وأنوار التنزيل للبيضاوي.

وهذه المؤلفات في تفسير القرآن وعلومه

ومن علوم الحديث نجد: - الجامع الكبير للسيوطي.

- وشروح صحيح البخاري ومنها: فتح الباري لابن حجر.

عمدة القاري للعيني.

وفي التاريخ والسير والأعلام :

- عيون الأثر ؛ لابن سيد الناس .
- وفيات الأعيان ؛ لابن خلكان . وأنباء أبناء أهل الزمان
- والوافي بالوفيات ؛ للصفدي . صلاح الدين خليل
- والضوء اللامع ؛ للسخاوي .
- والمواعظ والاعتبار ؛ للمقريزي . الخطط المقريزية .

أما الكتب الأدبية فمن أبرزها :

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ؛ للقلقشندي .
- نهاية الأرب في فنون الأدب ؛ للنويري . شهاب الدين .
- لسان العرب ؛ لابن منظور .

الأحد ٢٤/٣/١٤٣٢هـ

حالة النثر الفني

يلاحظ أن أغلب حكام هذا العصر من المماليك أو من الأعاجم أو ضعيفي الثقافة العربية لذا اتخذوا لأنفسهم كُتّاباً يكتبون الرسائل السلطانية فنشأ ما يعرف بديوان الإنشاء.

و ديوان الإنشاء / هو الذي يتولى المكاتبات الرسمية وله شأن عظيم في عصر الفاطميين و المماليك ، إذ زادت الحاجة إليه لضبط أمور الدولة وتحرير الرسائل السلطانية في مختلف شؤون الدولة ، و أصبح رئيسه يُسمّى كاتب السر له المكانة العليا في الدولة ، ويعاون كاتب السر مجموعة من الكتاب يسمون كُتّاب الدَّسْت : وهم المحررون في الديوان
و كُتّاب الدَّرْج : وهم الذين يجيدون الخط أكثر من الإنشاء.

و أصبح لديوان الإنشاء أنظمة خاصة حتى إن القلقشندي ألف كتابه العظيم صبح الأعشى في صناعة الإنشا ليجمع لكتاب الديوان ما يحتاجون إليه من معارف ومعلومات.

و الرسائل التي تصدر من هذا الديوان تشمل الرسائل السلطانية والعهود و المبايعات و المراسيم والتوقيعات.

ومن أشهر كتاب الإنشاء في تلك الفترة محيي الدين بن عبد الظاهر و ابن فضل الله العمري و القلقشندي و المقريزي.

و إلى جانب الكتابة الديوانية نجد الكتابة الإخوانية ويغلب عليها التكلف و السجع و المحسنات اللفظية ، وتدور حول أغراض كثيرة : كالتهنئة والتعزية و الشكوى و العتاب و المداعبة و الفكاهة . وكذلك ظهرت أنواع أخرى للكتابة كالكتابة الوصفية و المناظرات الخيالية و الحقيقية و المقامات.

و أشهر الكتاب في هذا العصر : ابن نباتة المصري و الشهاب الخفاجي و جلال الدين السيوطي.

وعلى العموم و بالرغم من وجود الكتابة و وجود كُتّاب مبدعين إلا أن الكتابة قد ضعفت في هذا العصر مقارنة بالعصور السابقة ، وخاصة الكتابة الأدبية و لعلنا نجمل أسباب ضعفها فيما يلي :

ولعلنا نجمل أسباب ضعفها ما يلي /

① ضعف اللغة العربية وانتشار العجمة .

② ظهور اللهجات العامية .

③ فساد الذوق الأدبي وانتشار التقليد للأساليب والعبارات الركيكة .

④ ضعف الثقافة الأدبية وقلة المحصول العلمي لدى كثير ممن تصدّروا للكتابة الفنية .

⑤ عدم التشجيع للأدباء المبدعين تشجيعاً كافياً .

وقد كان الاهتمام مقصوراً على كُتّاب ديوان الإنشاد أو الكتابة الديوانية .

ربيع ٢٠٢٠/٣

دراسة لأشهر شعراء العصر المملوكي (أولاً: صفي الدين الحلي)

هو أبو المحاسن عبد العزيز بن سرايا بن نصر الطائي السنبسي، نسبة إلى سنبس بطنٌ من طيء. ولد صفي الدين سنة ٦٧٧ هـ في بلدة الحلة بالعراق، وإليها نُسب.

أولع بنظم الشعر منذ شب عن الطَّوْق وأخذ على نفسه ألا يمدح كريماً ولا يهجو لئيماً.

كان صفي الدين شيعياً متحمساً، وشيعيته واضحة في شعره، وكان فارساً شجاعاً ولما فُقِد الأمن في الحلة ووقعت فيها الحروب خاض صفي الدين غمارها فأظهر بطولة وشجاعة نادرة، وقد سجل ذلك في شعره.

وكان عربياً صافي العروبة، وتظهر في شعره نعرته العربية، وتحمسه لقومه فكان يبث فيهم روح الأنفة والطموح، وهذه ميزة لم تكن لشاعر سواه من ذلك العهد، لفقدان الأمن وتستر الشعراء من تلك الفتن والحروب.

على أن تلك الفتن ما لبثت أن حملته على الرحيل إلى ديار بكر بن وائل فمدح الملك المنصور نجم الدين غازي بتسع وعشرين قصيدة كل قصيدة منها تسعة وعشرون بيتاً، وسماها درر النحور في مدائح الملك المنصور. وهذه القصائد تدل على مقدرته اللغوية وشاعريته الخصبة.

ثم اتصل بالسلطان المؤيد عماد الدين إسماعيل ومدحه كما مدح ابنه شمس الدين أبي المكارم، ثم رحل إلى مصر واتصل بسلطانها الملك الناصر فمدحه بقصائد عُرفت بالمنصوريات، نسبة إلى الملك الناصر.

كان في شعره كثير التصنع والتكلف لأنواع البديع والألغاز ولا بدع فتلك ميزة عصره.

وقد نظم قصيدة عدد أبياتها ١٤٥ بيتاً (مئة وخمسة وأربعين) سماها الكافية البديعية في المدائح النبوية، جمع فيها أنواع المحسنات اللفظية والمعنوية وفتح بها طريق نظم البديعيات لمن جاء بعده.

وقد اشتهر صفي الدين بغرض الوصف وأبدع فيه، ومن ذلك وصفه للربيع بقوله:

وَرَدَ الربيعُ فمرحباً بورودهِ ∴ وبنُورِ بهجتهِ ونَوْرِ وُرُودِهِ
وبحسنِ منظرِهِ وطيبِ نسيمِهِ ∴ وأنيقِ ملبسِهِ ووَشْيِ بُرُودِهِ
فَصْلٌ إذا افتخرَ الزمانُ فإنَّهُ ∴ إنسانُ مقلتِهِ وبيتُ قصيدِهِ
يُغْنِي المزاجَ عن العلاجِ نسيمُهُ ∴ باللطفِ عند هُبُوبِهِ ورُكُودِهِ
يا حبذا أزهارُه وثمارُه ∴ ونباتُ ناجِمِهِ وحبُّ حصيدِهِ

وإبداع صفي الدين في غرض الوصف لا يعني أنه لم يبدع في الأغراض الأخرى فقد أبدع في غرض الفخر وكذلك أبدع في المدائح النبوية حيث مدح النبي صلى الله عليه وسلم بقصائد كثيرة. ~~ومنها قوله:~~

~~أمير المؤمنين~~

الأحد ٢ / ١ / ٢٠٢٣م

دراسة مفصلة لأشهر شعراء العصر المملوكي

ثانياً : ابن الوردي

هو عمر بن المظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس المعرّي الحلبي زين الدين ابن الوردي الفقيه الشافعي الشاعر المشهور.

يتصل نسبه بأبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو نسب معروف مشهور لا شك فيه.

ولد في المعرة سنة ٦٨٩ هـ وانتقل إلى حلب فتفقه بها وبرز أقرانه وأخذ عن القاضي شرف الدين البارزي بحماة، وعن الفخر الخطيب جبريل بحلب، وعن صدر الدين محمد بن زين الدين عثمان في القاهرة، حتى أصبح رجل دهره وفاضل عصره وأبرز فقهائه وأدبائه وشعرائه. وتفنن في سائر العلوم وأجاد في المنثور والمنظوم، ونظمه جيد إلى الغاية وفضله بلغ النهاية.

ولي القضاء في منبج، ثم ترك ذلك وأقام بحلب وتولى القضاء فيها بالنيابة، ثم عزل نفسه وحلف لا يلي القضاء بعد ذلك.

ولزم الاشتغال في العلم والتصنيف حتى شاع ذكره وذاع صيته وكان زاهداً ورعاً حسن الخلق له مقام عظيم عند الناس ومهابة كثيرة وظل مقيماً في حلب حتى توفي بالطاعون في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ٧٤٩هـ

كان ابن الوردي دائماً بارعاً في اللغة والفقه والأدب، يؤيد ذلك مؤلفاته الكثيرة في شتى أنواع العلوم من نحو وفقه وتاريخ وشعر وأدب ونظم ومن أشهر مؤلفاته : ١- نظم البهجة الوردية وهو كتاب في الفقه في ٥٠٦٣ بيت (نظمه فيما يربو على خمسة آلاف بيت).

٢- ضوء الدرة على ألفية ابن معطي (في النحو).

٣- شرح ألفية ابن مالك.

٤- اختصار ألفية ابن مالك.

٥- أرجوزة في تعبير المنامات.

٦- منطق الطير (في علم التصوف).

٧- قصيدة اللباب في علم الإعراب (في النحو).

٨- المسائل الملقبة (في الفرائض).

وغيرها من الكتب.

وأما شعره :

فقد وصفه السبكي بأنه أحلى من السكر المكرر وأعلى قيمة من الجوهر . ووصفه الصفدي بأنه أسحر من عيون الغيد وأبهى من الوجنات ذوات التوريد .

وقال عنه آخرون : إنه جمع بين الحلاوة والطلاوة .

ولقد جعله هذا التقدم في العلم والشعر والأدب علماً شهيرة ، حرص علماء عصره وشعرائه وأدبائه أن يتصلوا به وينالوا رضاه أو إجازته أو غير ذلك .

عوامل نهضة الأدب في العصر المملوكي

من المعلوم أن الثقافة العربية الإسلامية والنهضة الأدبية قد بلغت (شأوًا / شأنًا) عظيمًا في العصر العباسي، ذلك العصر الذي يُعدُّ أزهى العصور الأدبية، وظلت كذلك في عهد الدول المتتابعة إلا أنها لم تكن على وتيرة واحدة من حيث القوة والضعف؛ نظرًا للاضطرابات السياسية والخلافات المذهبية وقيام الدويلات المتناحرة.

ولما كان نصل إلى عصر المماليك إلا ونجد الحركة الأدبية مستمرة ومزدهرة، ومن أهم أسباب ازدهارها:

١- غيرة العلماء على العلم والدين واللغة.

٢- رغبة المماليك حكام هذا العصر في إعادة مجد الإسلام، فعلى الرغم من بعدهم عن العروبة فهم يدينون بالإسلام ويخلصون له ويتحمسون لعلومه وآدابه ولغته.

٣- الإبقاء على اللغة العربية لغة رسمية للبلاد

٥- عمل أمراء المماليك على تشجيع العلماء كما فعل بنو أيوب عندما اعتمدوا رواتب شهرية للعلماء.

٦- هروب الأدباء من الشرق من عسف التتار ومن المغرب بسبب ضعف الخلافة الإسلامية في الأندلس، وتوجههم إلى مصر والشام عاصمتي الدولة الأيوبية.

٧- شعور المماليك بوجوب الحفاظ على التراث العربي، حيث أصبحوا حماة الإسلام ولغته.

٨- أدت الحروب والمواجهات مع الصليبيين وما صاحب ذلك من انتصارات ومعارك طاحنة انتصر فيها المسلمون أدت إلى إلهاب قريحة الشعراء فوصفوا تلك المعارك وتغنوا بالانتصارات ومدحوا القواد ورثوا الشهداء الذين سقطوا في تلك المعارك.

٩- كثرة التآليف في شتى أنواع العلوم الشرعية واللغوية والأدبية.

وكان للأدب وافر الحظ من تلك المؤلفات.

وحسبنا دليلاً على ذلك أن بعض العلماء عُرِف عنه أنه ألَّف مئات الكتب ، كالعلَّامة جلال الدين السيوطي .

روكو ®

عنوان الدرس: اختبار أعمال السنة   اليوم ....   التاريخ / / ١٤

الأول

س١/ تحدث عن الحالة الثقافية في العصر المملوكي.

س٢/ من أغراض الشعر في العصر المملوكي غرض الرثاء،
تحدث حول هذا الغرض مستشهداً لما تحفظ.

س٣/ ما المقصود بالبديعيات؟ ثم اذكر أبرز الشعراء
الذين عارضوا بردة البوصيري؟

الخامس
الأول

س١/ اذكر أبرز المؤلفات الأدبية في العصر المملوكي
وتحدث عن أهمها؟

س٢/ تحدث عن غرض الرثاء مستشهداً لما تذكر؟

س٣/ ما المقصود بالبديعيات؟ ثم اذكر أشهر الشعراء
الذين عارضوا قصيدة البردة؟

روكو ®